MISURATA A MARKET TOWN IN TRIPOLITANI
مصراتة المدينة السوق بطرابلس الغرب

G. H. BLAKE
Geography Department Durham University
قسم الجغرافيا / جامعة درم
ترجمة
د. مصطفى أحمد صقر

المحتويات

1. المقدمة

لم تحظ المدن الصغيرة في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا حتى الأن إلا بقدر قليل من الدراسة والاهتمام من قبل الجغرافيين، إلى درجة تبين أن هناك حاجة ماسة إلى دراسات حالة من هذا النوع، حتى ولو جاءت في شكل مقدمة لإجراء تحقيقات ودراسات مستقبلية مكثفة.

إن هذه الدراسة- التي بين أيدينا - لاتزيد عن كونها مجرد عمل ميداني عام عن مدينة مصراتة أجري في صيف عام 1966م، إجتمعت عدة عوامل لإظهاره بهذه الصورة: لعل من أبرزها ندرة الإحصائيات، وعدم وجود خرائط وصور جوية كبيرة الحجم أثناء تنفيذ العمل الميداني إضافة إلى عامل مهم أخر وهو محدودية الوقت المتاح لإجراء هذه الدراسة، و على الرغم من كل هذه الصعوبات ، فإن هذا العمل كان محاولة جيدة لدراسة طبيعة نشوء مدينة مصراتة كمركز اقتصادي (البلدة السوق) بطابعها التقليدي المميز، مع نسبة عالية من السكان الذين يكسبون قوت يومهم ويحققون دخلاً من بيع السلع وتقديم الخدمات في هذاالسوق.

لقد أثرت عائدات النفط الهائلة في ليبيا على مختلف جوانب الحياة في البلاد، وقد ظهر ذلك واضحاً في مدينة مصراتة التي شهدت تغيراً في شكل المدينة القديم والمآذن وأشجار النخيل والمنازل المسقوفة المنخفضة، وظهور سلسلة من المباني العامة والخاصة على الطراز الأوروبي وفق هندسة معمارية حديثة ، الأمر الذي يبين أن المدينة ستتحول خلال السنوات القليلة القادمة من مجرد سوق محلي صغير إلى مركز إقليمي حقيقي يقدم خدمات اقتصادية مهمة من خلال دوره كمركز عبور، حيث سيمر طريق شمال إفريقيا السريع المتوقع انجازه قريباً بالقرب من قصر أحمد الذي سيصبح قاعدة بحرية وعسكرية مهمة، كما توجد خطط لتطويرالمستوطنات الإيطالية الكبيرة السابقة في جنوب وغرب المدينة. إن سكان مدينة مصراتة يتميزون بمهارتهم ونشاطهم التجاري الدائم، وبالتالي فإنهم لن يتأخروا في الاستفادة من هذه الفرص المتاحة بشكل جيد، واقامة العديد من الصناعات التقليدية البسيطة استجابةً للازدهار والتطور العمراني الذي تشهده المدينة .

إن الوعود بالتحديث السريع للمدينة سيجعل من مصراتة مدينة ذات أهمية خاصة ، لكن يبقى أن نرى ما إذا كانت الخطة الرئيسية للمدينة، **التي يتم إعدادها الآن في روما** ، ستنجح في الحفاظ على ما هو جيد من معمار المدينة القديم مع إنشاء مدينة قادرة على الاضطلاع بمسؤولياتها الاجتماعية والاقتصادية المتزايدة باستمرار تجاه المنطقة المحيطة.

بائعوا الفاكهة والخضروات في يوم السوق، سوق السمك (على اليسار) وسوق الفاكهة والخضروات المغطى (على اليمين).

ميدان النصر في يوم السوق، حيث يظهر سوق الصوف والمحال التجارية بالميدان

2. الموقع

تقع واحة[1] مصراتة في أقصى شرق سلسلة الواحات الساحلية في طرابلس الغرب، وهي تدين بوجودها - في الأساس - إلى كمية المياه الجوفية التي توفرها الآبار الضحلة الموجودة بالمنطقة الساحلية بمصراتة، والتي تقدم للمدينة قدر جيد نسبيًا من المياه الصالحة للشرب والزراعة، أما معدل سقوط الأمطار السنوي فهو منخفض جدًا ولا يمكن الاعتماد عليه لاستدامة الزراعة المستقرة، ولذلك فإن المناطق التي تنعدم فيها المياه الجوفية أو تكون فيها المياه على عمق كبير نادراً ما تكون مناطق صالحة للإستقرار السكاني.

تمثل واحة مصراتة جزءًا من الأراضي المنخفضة نسبياً مع تنوع ضئيل في تضاريسها، وعلى المرء أن يسير مسافة عشرين كيلومترًا إلى الجنوب الغربي ليشاهد تلالًا يصل ارتفاعها إلى 90 مترًا؛ أما في بعض الأماكن الأخرى فإن تضاريس مصراتة في الغالب مستوٍ أو منبسط تمامًا، والاستثناء الوحيد المثير للإهتمام بها هو حزام الكثبان الرملية الساحلية، والذي يصل ارتفاعها إلى أكثر من 30 مترًا، إضافة إلى الكثبان الرملية الضخمة التي يبلغ طولها حوالي أربعة كيلومترات شمال مصراتة ويصل ارتفاعها إلى أكثر من 60 مترًا.

إن الآثار الناجمة عن هذه الكثبان الرملية على المُناخ المحلي لمصراتة تتطلب- في الواقع- دراسة خاصة، والانطباع الشخصي - الذي يمكن تسجيله هنا- هو أن ذلك يحد من الاستفادة من نسيم البحر في النهار.

من نواحٍ أخرى، يمكن القول أن الخصائص المُناخية لمصراتة تتشابه إلى حد بعيد مع مدينتي الخمس وزليتن المجاورتين، حيث تتمتع جميع هذه المناطق بمناخ مستقر نسبياً بسبب قربها من البحر خلال أشهر الصيف الساخنة جداً (أغسطس بمعدل 32.2 درجة مئوية) وأشهر الشتاء الأكثر برودة (يناير بمعدل 12.5 درجة مئوية).

1- تمت الإشارة إلى مصراته في عدة مواضع بأسم "واحة مصراته Misurata oasis "

شارع جامع الشيخ حيث يظهر جهة الشرق مبانى من طابقين وهذ النوع من البناء قليل فى مصراتة القديمة

محل تقليدي لصباغة الجلود بسوق العطار

الخريطة رقم 1 التقسيم الاداري

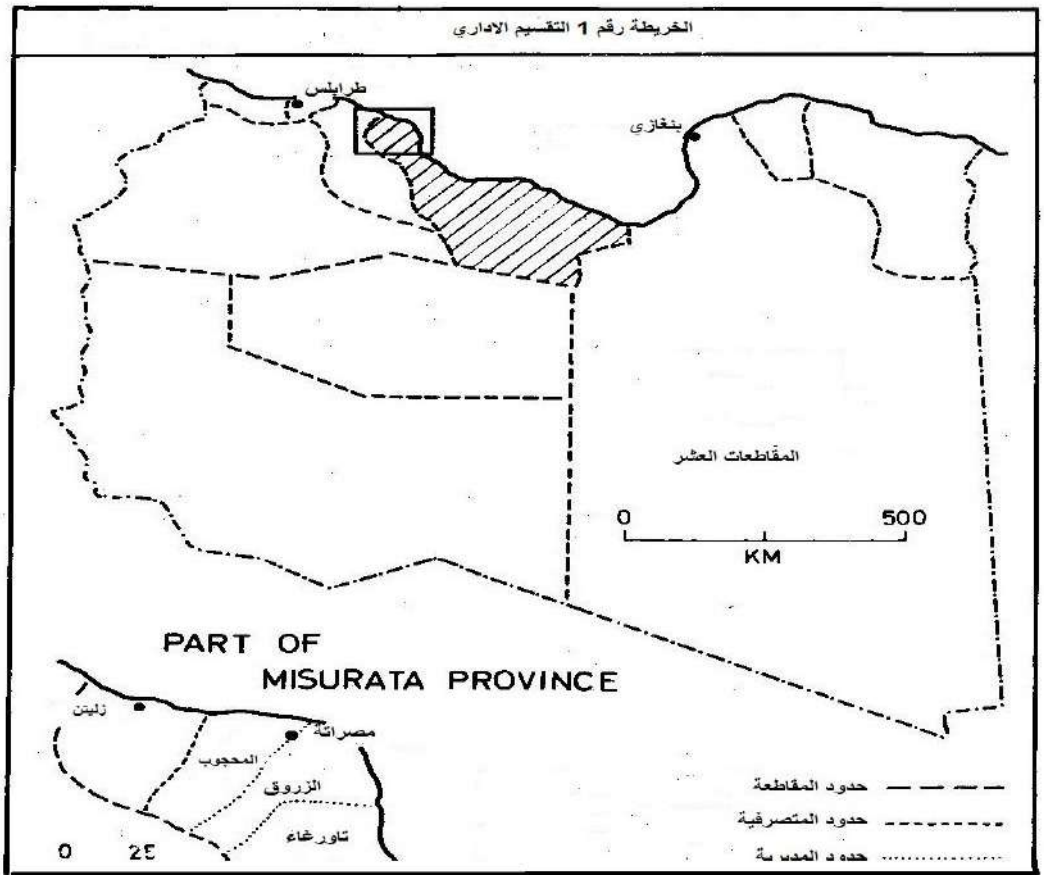

موقع مدينة مصراتة المميز آهّلها بامتياز لتتبوأ دور (المدينة/ البلدة السوق) أي المركز التجاري الرئيسي ليس للواحات - التي تعتبر مصراتة مركزًا جغرافيًا لها فحسب، بل وللإقليم بالكامل في الجنوب والشرق (الشكل/الخريطة 2)، حيث لعبت مصراتة تاريخياً دورالسوق المحلي المرتبط في أغلب الأحيان بالأنشطة التجارية التي تعتبرمتطورة نسبياً والمرتبطة بتجارة القوافل- أحد أهم الأنشطة الاقتصادية التي ارتبطت بها مصراتة- بحكم موقعها على الحافة الشمالية للصحراء الكبرى حيث كانت تلتقي طرق القوافل القادمة من الجنوب والجنوب الشرقي بطريق القوافل الساحلي بين الشرق والغرب، القريب جدًا من البحر على طول الحافة الغربية لخليج سرت.

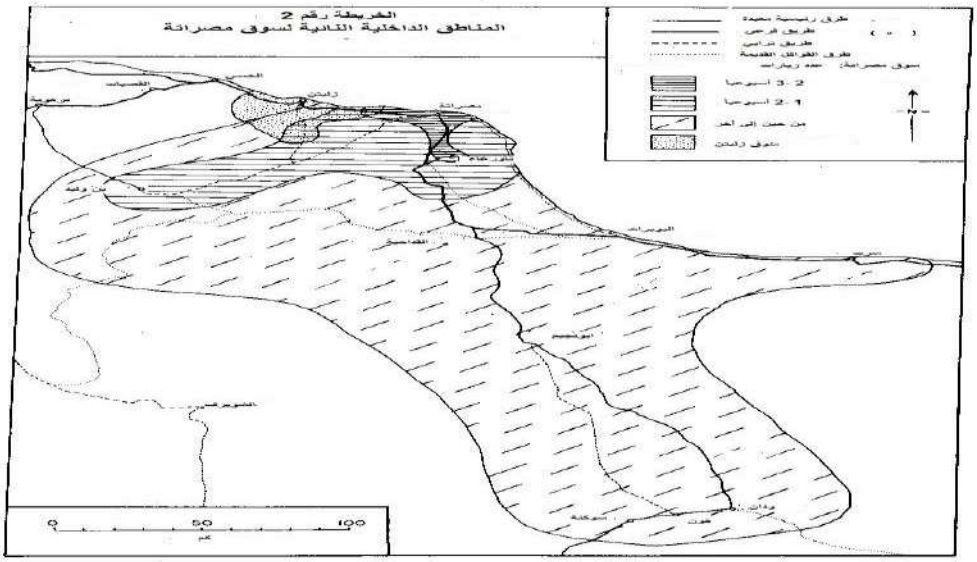

بذلك كانت القوافل تستطيع تجنب عبور سبخة تاورغاء عند المسيرغربًا عبر واحة مصراتة حيث تتوفر المياه العذبة من الآبار دائمة المياه، كما أن زحف الكثبان الرملية الكثيف غرب مصراتة كان له تأثير كبير على مسارطريق القوافل، وتغييره باتجاه الداخل بمنتصف واحة مصراته، وعلى عكس الطريق الحالي الذي شيدته إيطاليا ، فإن مسار طريق القوافل التقليدي كان يسير غربًا من مصراتة حتى يصل إلى مكان تجمع الكثبان الرملية ثم ينحرف نحو الجنوب الغربي بمحاداة حافة تلك الكثبان، بمعنى أن الطريق الممتد من قصر أحمد يسير بشكل يجنب عبور سبخة تاورغاء في الشرق والكثبان الرملية في الغرب ما يجعله حتماً بالقرب من موقع مصراتة.

إن ازدهار مدينة مصراتة اليوم يعتمد بشكل كبيرعلى تبادل ونقل السلع والبضائع من وإلى الأرياف والقرى والمناطق المحيطة، حيث يظهر التعايش والتفاعل بين المدينة والمناطق المحيطة بشكل واضح محليًا إلى درجة أن مفهوم مصراتة لا يقصد به غالباً عند سكان الأرياف والقرى والمناطق المحيطة "مدينة" أو "كيان حضري" بقدر ماهو دلالة إقليمية أحيانًا مرادفة كليًا لمفهوم المتصرفية، وفي أغلب الأحيان يُعنى به السوق "مركز النشاط التجاري" بل غالبًا ما يشار إلى المدينة نفسها باسم السوق.

الجدير بالذكر هنا أن الإحصاءات الرسمية لا تميز بين مصراتة كبلدة وبين المتصرفية التي تحمل نفس الاسم، وبالتالي فإن إحصائية عدد سكان الحضر والتي تقدرهم بـ19000 نسمة سنة 1966م ليست سوى تقدير أوتخمين، لإن هذه الإحصائية إذا كانت دقيقة، تعني أن مصراتة هي رابع أو خامس أكبر مدينة في ليبيا.

تبين احصائية السكان الرسمية لسنة 1965م أن عدد سكان متصرفية مصراتة يبلغ 72,985 نسمة، مايشير إلى أن المميزات التي اكتسبتها مصراتة من موقعها الجيد كسوق إقليمي ومركز تبادل تجاري ونشاط اقتصادي على مر العصور لا زالت قائمة حتى اليوم رغم أن موقعها على البحر لم يعد ذو أهمية كبيرة من الناحية الاقتصادية باعتبار أن قصر حمد لم يعد يستخدم حالياً كميناء لشحن ونقل البضائع.

لقد تم استبدال طريق القوافل الساحلي القديم بطريق إيطالي حديث، ولا زالت مصراتة تقدم السلع والخدمات للمسافرين بين طرابلس التي تقع على بعد 220 كيلومتر"غرباً" ، وبنغازي التي تبعد 820 كيلومتر شرقاً، أما من حيث دورها كسوق "مركز تجاري" ، فإن مصراتة لا تستمد أهميتها فقط من موقعها الجغرافي القريب من القرى

والمناطق الواقعة في نطاقها (الخريطة 3) ولكنها تجذب إليها الناس بأعداد مماثلة أيضًا من مختلف الجهات لتحتل بذلك -في الواقع- مرتبة أكبر سوق "أومركز نشاط تجاري" وأكثرها زيارة في شرق طرابلس بسبب غياب أي أسواق جديدة منافسة لها.

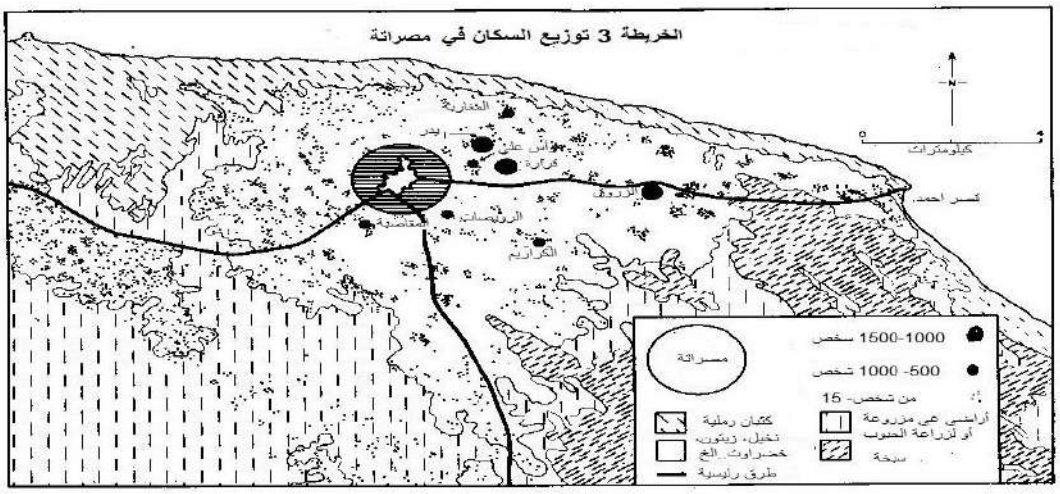

إن أهمية موقع مدينة مصراتة كمركز للتبادل داخل الواحة سيتم تناوله بشكل أكثر استفاضة في الجزئية اللاحقة، ولكن من الجدير بالذكر هنا أنه وحتى فترة قريبة جداً عندما شهدت المدينة استقراراً سكانياً كاملاً، ظلت مصراتة تقف إلى حد ما بين تلك القبائل القاطنة في الغرب التي اعتمدت في حياتها على بعض انواع الزراعة والقبائل المقيمة في الشرق والتي لم تمتهن الزراعة واعتمدت في حياتها على مهنة الرعي، حيث تظهر نوعية وكمية المياه الجوفية المتوفرة، وجودة التربة، ومدى معرفة الأهالي واجادتهم لنظم وطرق الزراعة أن مهنة الزراعة كانت تمارس غرب مدينة مصراتة بينما كان الرعي هو المهنة الأكثر شيوعاً إلى الشرق منها، بل ربما يمكن القول أن ملامح المجتمع غرب مصراتة تقترب تدريجياً من مجتمع المدينة بينما في الشرق لازالت تتجه بوضوح نحو الصحراء (الشكل 4).

علاوة على ذلك، صنف هينركو أغوستيني" H. de Agostini" العديد من القبائل المحيطة مباشرة بمصراتة من ناحية الغرب على أنها كولوغلية (أي من ذوي الدم المختلط وبشكل رئيسي الأتراك والبربر) في حين أن القبائل الموجودة في الجنوب الشرقي والشرق عرب وبربر " أصليون " [1]، الأمر الذي يعزز فرضية أن مصراتة كانت مركزاً رئيسياً لتبادل منتجات الاقتصاد الرعوي والاقتصاد الزراعي.

يعكس توفرموارد المياه الجوفية في جميع أنحاء مصراتة بوضوح التوزيع السكاني للواحة حيث تبين (الخريطة 3)، بعض المزارع التي أنشأها الإيطاليون في جنوب مصراتة بعد اكتشافهم للمياه الجوفية في تلك المنطقة في ثلاثينيات القرن العشرين، وان كان ذلك - في الواقع - لم يلغ أنماط الزراعة القديمة داخل الواحة نفسها.

إن الاستفادة من استخدام المياه الجوفية يتناقص بشكل تدريجي كلما اتجهنا إلى الجنوب الشرقي لمصراتة حيث يتلامس خزان المياه الجوفي مع المسطح المائي للسبخة، وبالتالي يصير الماء مالحاً إلى حد ما، وقد تم العثور على آثار الملح في مياه الآبار في جميع واحة مصراتة، إلا أن نسبة الملوحة كانت في غرب المدينة أقل بشكل ملحوظ ومنسوب المياه الصالحة للإستعمال هناك كان أعلى، وهو ما يعكس حجم الكثافة السكانية غرب مصراتة وحول زاوية المحجوب[2].

صحيح أن مصراتة تقع في موضع تعتبر فيه كميات المياه جيدة نسبياً من حيث "الكمية والجودة "، إلا أنه من الخطأ الاعتقاد بأن مصادر تلك المياه وعدم نضوبها مرده إلى طبيعة خاصة بالمدينة ففي السنوات الأخيرة، استنفدت مياه الطبقات السطحية بمصراتة، ومنذ عام 1960م، تم ربط المدينة بسبعة آبار ارتوازية على بعد أربعة عشر كيلومترًا في منطقة السكت، وقد بيّن التوسع الأخير لمدينة مصراتة -والمتوقع استمراره بصورة

1- Agostini de E, Le popolazione della Tripolitania, Tripoli, (1917), p. 168.

2- Mclachlan K.S., A geographical study of the coastal zone between Horm and Misurata, Tripolitania, Ph.D. Thesis, University of Durham (1961), 591.

أكبر- أن إمدادات المياه للمدينة غير ثابتة حيث تنتج آبار منطقة السكت 1200 متر مكعب في اليوم، وهو ما يكفي لـ 24000 نسمة بافتراض أن متوسط استهلاك الفرد يبلغ 50 لتراً من الماء1، وهذا يعني أنه يمكن تزويد السكان الآخرين من مصادر المياه الموجودة، كما يمكن ضخ كميات من المياه الإضافية إما من تاورغاء أو الدافنية، ولكن يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن كميات كبيرة من مياه "تاورغاء والدافنية "مخصصتان لمشاريع الري الزراعي وبالتالي، يجب أن يحظى نظام تخصيص وتوزيع الموارد المائية بمصراتة باعادة نظر شاملة لتنمية المنطقة.

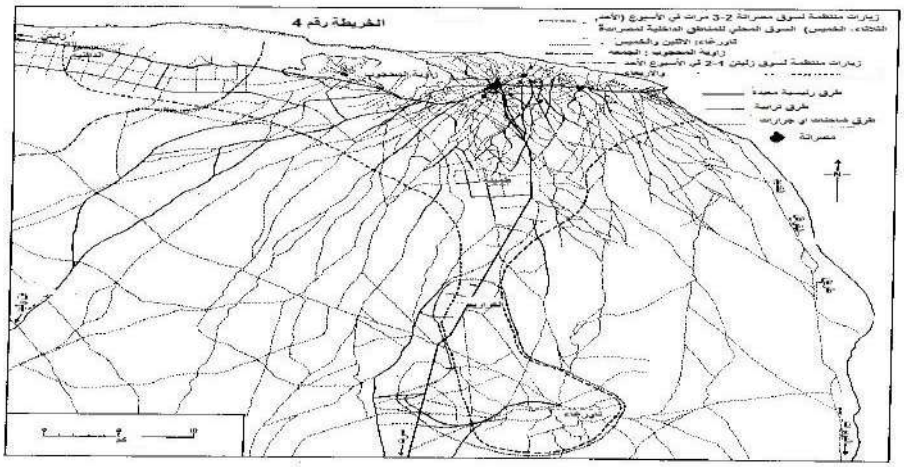

يقال إن معظم المنازل القديمة في مصراتة توجد بها آبار خاصة بها، إلا أنه من الصعوبة بمكان التحقق من مدى صحة هذا القول، وإن كان من المحتمل أن تكون هذه الآبار لم تتجاوز الطبقة السطحية للمياه وتعتمد على منابع المياه الصغيرة التي تستقر على طبقة صلبة على عمق يتراوح من 12 إلى 15 متراً، وتعتبر منابع المياه الصغيرة هذه من النوع الشائع إلى حد ما في مصراتة وهي توفر كميات جيدة من المياه المنزلية خاصة في فصل الشتاء، و من المؤكد أن وجودها كان سبباً مهماً في وجود مجموعات متفرقة من المنازل بجوارها، وهو ما يفسر سبب بناء الكثير من منازل مصراتة القديمة في مناطق منخفضة مما يجعلها عرضة للفيضانات مرة أو مرتين خلال موسم الأمطار من أكتوبر إلى يناير في معظم السنوات.

وعلى الرغم من أن موقع مصراتة له العديد من الميزات، إلا أن له عيوب أيضاً، حيث يمكن القول أنه وبالرغم من عدم وجود خريطة دقيقة للمدينة، إلا أنه يمكن ملاحظة أن أعلى ارتفاع للأرض في مصراتة يقع في الشمال والشمال الشرقي، وتنخفض الأرض تدريجيًا كلما اتجهنا نحو الجنوب الشرقي، بحيث يقع جزء كبير من المدينة القديمة على أراض منخفضة، والجزء الأكثرانخفاضاً يقع بالقرب من الأسواق حيث يقل ارتفاع الأرض عن خمسة أمتار، كما يوجد خارج المدينة في الجزء الجنوبي الشرقي بركة كبيرة يبلغ ارتفاعها حوالي متراً واحداً فوق مستوى سطح البحر، وبعد هطول الأمطار الغزيرة تغمر المياه أحيانًا مناطق واسعة من البلدة القديمة حتى عمق نصف متر أو أكثر (الشكل 14).

لقد كان أسوأ فيضان شهدته مصراتة في السنوات الأخيرة في أكتوبر 1963م عندما استغرق ضخ مياه الفيضان خارج المدينة مدة أسبوعين، وقد تفاقمت مشكلة الفيضانات بسبب طبيعة الطرق في مصراتة وطريقة رصفها، وخاصة في الشمال، حيث يفضل المزارعون إقامة حواجز ترابية صغيرة بين حقولهم والطرق، مما يتسبب في تدفق مياه الأمطار عبر الطرق بجوار تلك الحواجز إلى المدينة، وتعمل حالياً شركة بريطانية لبناء نظام صرف صحي بمصراتة، ولعل من أبرز الصعوبات التي تواجه المدينة ويجب التغلب عليها هي كيفية التخلص من مياه الصرف الصحي لأن حزام الكثبان الرملية لا يوفر منفذًا طبيعيًا للبحر.

جدير بالملاحظة أيضاً، أنه بالرغم من أن تشييد المنازل في البلدة القديمة في منطقة منخفظة مرده إلى أن ذلك يسهل من مهمة حفر الآبار الجوفية والتقليل من عمقها، إلا أن منطقة السوق ازدادت انخفاضاً- بدون شك - مع مرور الزمن بسبب الحركة الدائمة للناس والدواب التي أدت إلى تحطيم التربة وجعلها أكثر عرضة للانكماش،

1 Kiang,H., Sewage system planning, Misurata, P.W.D Misurata (1965), (unpublished).

حيث لاحظت عائلة بيتشيز "Beecheys" التي مرت عبر مصراتة في عام 1821م، أن السوق "مثل معظم الأسواق الأخرى في هذا البلد" كان نصفه مشغولًا ببركة من "المياه الخضراء والرائحة"[1]، وبالرغم من أن بركة المياه اختفت الآن، إلا أن مشكلة الفيضانات لا زالت تنتظر تركيب نظام صرف مناسب.

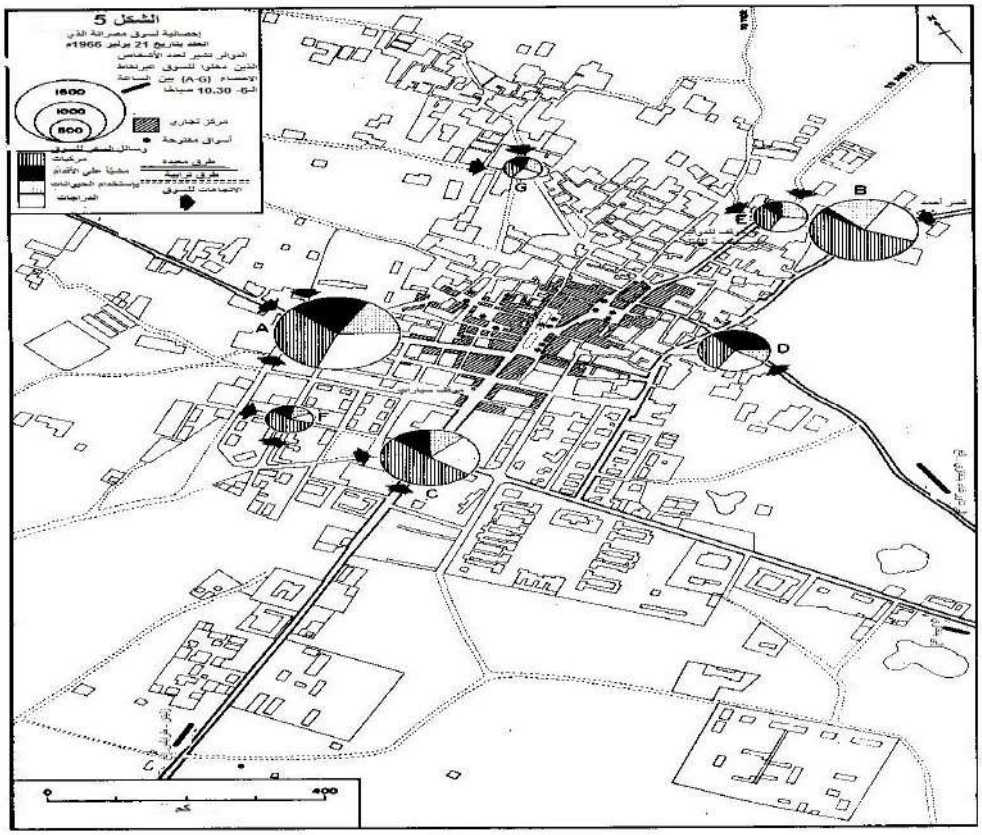

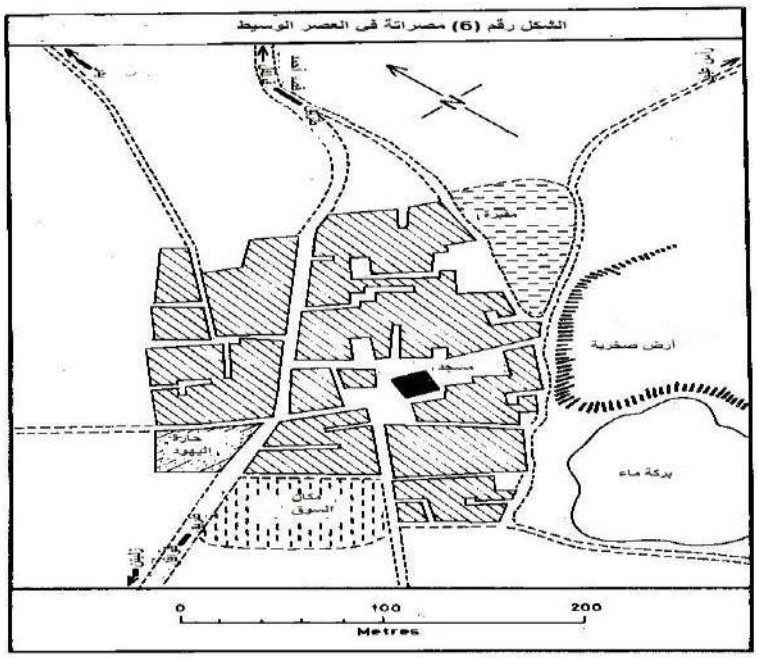

1 - Beechey, Frederick William and Beechey, Henry William., Proceedings of the Expedition to explore the Northern Coast of Africa1821-22, (1828), 89..

3. النشأة والتاريخ

يكاد يكون من شبه المؤكد أن المزارعين البربر الأوئل قد أوجدوا شكلاً من أشكال الاستيطان الزراعي بالقرب من مدينة مصراتة الحالية قبل الهجرات العربية الأولى إليها بين عامي 642-643 م، وعندما اجتاحت قبائل بني هلال وبني سليم طرابلس الغرب بعد أربعة قرون بين عامي 1051-1055م كانت الزراعة المستقرة بالتأكيد منتظمة بالواحات الساحلية، وعلى الرغم من عدم امكانية تحديد أعداد من تركوا الأراضي الزراعية نتيجة لهذه الهجرات إلا أن مجموعات صغيرة من المزارعين العرب - البربر قد بقوا في بعض الأراضي، بينما تم استبدال الزراعة المستقرة على نطاق واسع بنوع من حياة البداوة حيث استخدمت الواحات الساحلية في زراعة الحبوب بينما أصبحت المراعي على الأطراف الجنوبية الدعامة الأساسية للاقتصاد القبلي، ووفقًا للتقاليد المحلية، فإن مصراتة أصبحت مركزاً للقبائل شبه الرحل خلال فترة إقامتهم الصيفية القصيرة بها، وصارت هناك مجموعة مستقرة من المزارعين تعمل على تزويد رجال القبائل بالطعام والسلع الأخرى التي لم يتمكنوا من إنتاجها بأنفسهم[1] وقد يكون هذا التجمع البشري من المزارعين المستقرين قد استقر على أو بالقرب من طريق ذي أهمية متزايدة .

منذ هجرة الهلاليين لطرابلس وحتى نهاية القرن التاسع عشر تقريبًا، أصبحت مصراتة جزءًا لا يتجزأ من الاقتصاد الرعوي، حيث لا يمارس النشاط الزراعي إلا بشكل قليل جداً، وانعدم الاستيطان الدائم بسبب طبيعة النظام القبلي الذي تكون فيه ملكية الأراضي مشتركة، إضافة إلى عوامل الصراعات القبلية المتكررة وانعدام الأمن الذي يحول دون الاستثمار في الآبار والمنازل والأشجار.

لقد عاشت مصراتة منذ ما يقارب من الثمانمائة عام أو نحو ذلك، في بيئة اقتصادية أقرب لحياة البداوة منها لحياة الاستقرار، وعلى الرغم من أنها استفادت من حركة المد والجزر الموسمي" الرحيل والعودة" للقبائل، إلا أن أسواق الصيف وحدها ربما لم تكن تجتذب التجار المختصين في الأنشطة غير الزراعية بقدر استفادتها من نشوء فرص تجارية أخرى مرتبطة بحركة القبائل.

من المحتمل أن مصراتة - كسوق أو مركز نشاط تجاري - بدأت في الانخراط في التجارة البينية في وقت مبكر من القرن الثاني عشر، حيث تم العثور على شواهد قبور عليها نقوش عبرية تعود إلى عام 1142م بالقرب من مصراتة[2]، وبالتالي، فإن وجود جالية يهودية بالمدينة يمكن الاستناد عليه كدليل بارز على وجود انشطة اقتصادية أخرى غير الزراعة في مصراتة، حيث كانت أقدم جالية يهودية بمصراتة تتواجد بمنطقة يدر، وهي قرية تبعد أقل من اثنين كيلومترعن المدينة وارتبطت تاريخاً واقتصادياً بشكل دائم بمصراتة المجاورة.

بحلول عام م1380م تزايد عدد سكان مصراتة من المسلمين بشكل كبير، وهو مايتضح من خلال حجم المسجد الذي تم إنشاؤه والذي كان يتسع لعدد سبعين رجلاً في الصلاة الواحدة (اللوحة 3 ب)، وخلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، أصبحت المدينة كمركز تجاري ذات أهمية متزايدة بسبب قربها من الساحل كملتقى لطرق القوافل.

لقد تمتعت مصراتة تحت مسمى توباكتس "Thubactis" في العصور الوسطى، بعلاقات تجارية مزدهرة مع البندقية وجنوة ومع العديد من موانئ شمال إفريقيا، حيث كانت تصدّر الصوف وزيت الزيتون والملح عبر ميناء قصر أحمد، وتستورد الحرير والبضائع والسلع الأخرى للمقايضة بها في دواخل أفريقيا حتى إثيوبيا ونوميديا[3] ، وفي بداية القرن السادس عشر، لاحظ ليون الأفريقي أن "مقاطعة مصراتة كانت غنية بشكل مفرط بسبب ... الاهتمام الممنوح للتجارة"[4]، الأمر الذي قد يعني وجود تعاون أو شراكة بين سكان المدينة المستقرين ورجال القبائل الرحّل لتعزيز وتطوير التجارة، وإذا كان الأمر كذلك، فإن هذا ما يفسر التقليد المحلي الذي مارسته إحدى القبائل حول مصراتة وعلى طول ساحلها - بأن اتخذت من مهمة حماية القوافل كمصدر للدخل - وذلك بتأمينها

1- Mclachlan K.S., op.cit., p. 252.

2 Slouschz N., Travels in North Africa, Philadelphia, (1927), pp. 51-53.

3 . نوميديا هي: هي مملكة نوميدية أمازيغية قديمة، تقع في ما يعرف الآن بالجزائر، وجزء من تونس وليبيا، وكذلك في أقصى شرق المغرب حتى وادي ملوية في المغرب الأقصى، Sharif, Abd Al-Aziz, Geography of Libya, Cairo, (1963), 448 (Arabic).

4- Africanus Leo, The history and description of Africa, Translation of 1600 edited by Robert Brown. Hakluyt Society (1846), p. 775.

بمجرد وصولها إلى مراعي تقليدية معينة كانت مجموعات قبلية أخرى ترفض مرور القوافل عبرها في ذلك الوقت[1]، وقد أدى تأمين تجارة العبور على طول الساحل إلى جلب التجارة إلى توباكتس "مصراتة" والتي ربما لن تكون معبراً تجارياً مهماً - لولا هذا العامل- بالنظر إلى عامل قصر المسافة بالنسبة للقوافل.

من المؤسف، أنه من الصعوبة بمكان، إعادة بناء مدينة مصراتة التي تعود لفترة العصور الوسطى (الشكل 6) والتي تقع منازلها ومركزالنشاط التجاري بها "السوق" في اطار سماع صوت مؤذن - أقدم مسجد بها، بالإضافة إلى طريق القوافل المار بالقرب من السوق.

إن اتجاه الطريق الرئيسي عبر مصراتة اليوم من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي مرتبط بشكل واضح بمحاذاته لطريق القوافل القديم من قصر أحمد بإتجاه الغرب كما يُعتقد أن أقدم سوق في المدينة كان في موقع سوق الماشية الحالي، والذي ربما كان في العصور الوسطى على أطراف المدينة على نفس النسق السائد في طرابلس الغرب اليوم حيث توجد الأسواق كثيرًا خارج القرى والمدن الصغيرة.

تذكر المصادر أنه كان يوجد بمصراتة في القرن الثاني عشر جالية يهودية، وأن الحارة اليهودية الواضحة المعالم اليوم لم تكن - من الناحية الفعلية- جزءًا معزولًا عن المدينة في العصور الوسطى، بل أنها بموقعها غرب طريق القوافل تمثل نواة حارة اليهود الحالية (الشكل 7)، لقد حالت المقبرة والبركة اللتان كانتا تحدان المدينة في العصور الوسطى من جهة الجنوب الشرقي، دون توسع المدينة في هذا الاتجاه وكان بينهما منطقة من الأراضي الحجرية المرتفعة نسبياً التي من شأنها أن تعيق حفر الآبار الجوفية.

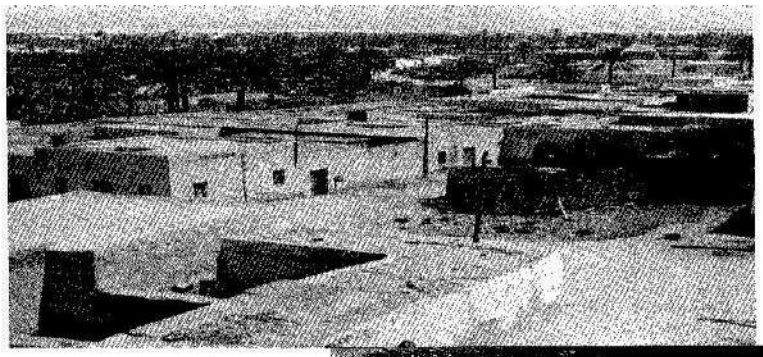

جزء من مصراتة القديمة شمال شرق الجامع العالي حيث تظهر بوضوح الرمال الساحلية و الكثبان الرملية

صورة للجامع العالي الذي يعود تاريخ إنشائه للقرن الرابع عشر الميلادي المئذنة أضيفت حديثًا للمسجد

بالمقارنة مع المراكز التجارية الكبرى على البحر الأبيض المتوسط ، لم تكن توباكتس "Thubactis" "مصراتة" من المراكز القوية ولا الغنية اقتصاديًا، كما أن عدد سكانها - على الأرجح - لم يتجاوز الألفي نسمة، وقد اعتمدت في ازدهارها التجاري على تجارة العبور، وعندما بدأت تجارة البندقية وغيرها من الشركاء التجاريين الآخرين على المتوسط في التدهور، فقدت مصراتة الكثير من اهميتها كسوق للواحات، إلى درجة أنه عندما استولى العثمانيون على طرابلس جعلوا الخمس وليس مصراتة عام 1565م مقرًا للمتصرفية، كما توجد أدلة على أن العثمانيين نشروا حامية صغيرة في (يدر) المجاورة، لم تكن لها سيطرة كاملة على القبائل المحلية، كما شهدت الحياة الاقتصادية في مصراتة بعد سيطرة العثمانيين على طرابلس ركودًا كبيرًا لفترة من الزمن

1 - Mclachlan K.S., op.cit., p. 257.

وتحولت المدينة إلى مجرد محطة توقف لرحلات الحجاج، وهي مناسبة يقال إنه يتم الاحتفال بها في اسم المدينة البديل "ماطين " والذي كان شائع الاستخدام حتى القرن الماضي[1] .

شهدت التجارة الصحراوية، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، انتعاشًا كبيرًا وخاصة تجارة الرقيق، وأصبحت مصراتة المكان المفضل للتجار كمركز لتجميع الرقيق لأن السيطرة العثمانية عليها كانت أقل فعالية منها في طرابلس القريبة، وكان من السهل التهرب من دفع الضرائب، وقد ساعد وجود مجموعة من التجار الأثرياء بالمدينة على نمو بعض الصناعات الحرفية المحلية بها، ولا سيما صناعة السجاد مثل "الفرشة" و "الكليم"2 التي تشتهر بها المدينة الآن.

إن عدم توسع ميناء قصر أحمد على حساب مدينة مصراتة يتطلب شئ من التوضيح، فقد كان هذا الميناء يتمتع بجميع المميزات التي تجعله ميناءً مناسبًا لطريق القوافل الساحلي، وفي موقع مناسب جدًا على البحر، وأغلب النشاط التجاري الذي شهدته مصراته لفترة من الزمن تم عبر هذا الميناء الهام ، إن التفسير الأقرب لذلك، يكمن في أن عامل الموقع هو الذي مكّن مصراتة من تجاوز تقلبات أسواق التجارة الخارجية من خلال استمرار الأسواق الموسمية والأسبوعية للمنتجات المحلية، في حين أن ميناء قصر أحمد لم تكن له أسواق محلية داخلية خاصة تزوده بمنتجاتها.

وعلى الرغم من أن قصر أحمد لم يستبعد أهميته التي كان يكتسيها في العصور الوسطى، إلا أنه كان يسخدم في الغالب من قبل السفن التجارية خلال القرنين القرنين السابع عشر والثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ليكون مصدر ايرادات لمصراتة مرة أخرى كونه نقطة انطلاق للقوافل، حيث يذكر الدبلوماسي البريطاني سيمون لوكاس (Simon Lucas) على سبيل المثال، خلال رحلة قام بها عام 1789م بصحبة عدد من التجار أنهم وجدوا أن إرسال بضائعهم عن طريق البحر إلى قصر أحمد أرخص من استئجار قافلة، ومع ذلك ، وما إن وصلوا إلى مصراتة، حتى استأجروا العديد من الجمال، لإستكمال الرحلة وقد أُبلغ لوكاس نفسه أنه سيحتاج إلى 120 جمل لإكمال رحلته إلى الداخل[3].

ومع انهيار التجارة الصحراوية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بدأت مصراتة تفقد أهميتها الاقتصادية كمركز لتجارة القوافل، إلا أنها بدلاً من ذلك، أصبحت سوقًا ذو أهمية متزايدة مع تزايد الاستقرار السكاني (توطين الرحّل)، حيث بدأ البيع المنتظم للمحاصيل يحل محل التبادل الموسمي للسلع.

لقد أدى هذا التغير الاجتماعي والاقتصادي الكبير إلى تحول مصراتة من الاقتصاد الرعوي في الغالب إلى اقتصاد يغلب عليه الطابع الزراعي وإلى إنتاج كميات متنوعة من المحاصيل الزراعية، وعلى الرغم من أن طرق الزراعة المستعملة كانت بدائية، واستخدام الري فيها كان محدودًا مقارنةً بطرق الزراعة والري السائدة اليوم، إلا أن العديد من المزارعين استمروا في العمل في الأراضي الزراعية الشاسعة الواقعة في جنوب واحة مصراتة، وهي عوامل حولت مصراتة في الواقع إلى سوق إقليمي يعتمد على الثروة المنتَجة محليًا بدلاً من اعتمادها على تجارة العبور، حيث كانت آخر قافلة تجارية وصلت إلى مصراتة عام 1911م تقريبًا، وبالتالي سيكون من الخطأ الاعتقاد أن مصراتة أصبحت السوق الإقليمي الوحيد دون منازع منذ القرن التاسع عشر .

لقد عمدت الإدارة العثمانية، لأسباب غير معروفة، إلى تحويل مكان سوق مصراتة إلى يدر، وهوسوق يقع على بعد حوالي كيلومتر واحد شمال طريق القوافل التاريخي الذي يمر مباشرة عبر مصراتة، ولكن وبالرغم من موقعه غير الجيد فقد شكل هذا السوق منافسة كبيرة لسوق مصراتة، فحتى السنوات الأولى من هذا القرن، كانت الأسواق تُعقد مرتين أسبوعياً (الثلاثاء والخميس) في يدر، في حين تعقد مرة واحدة في الأسبوع في مصراتة (أيام الأحد)، الأمر الذي يمكن اعتباره دليلاً على الصعود الاقتصادي لمنطقة يدر - في وقت ما- في الماضي، كما إن المنطقة التي يشغلها السوق والمتاجر المصاحبة بالقرب من يدر وحجمها المثير للإعجاب يشير إلى أن هذا السوق كان ذو أهمية كبيرة، إلا ان تفوق مصراتة على يدر، على المدى الطويل، تجسد بشكل أكثر وضوحًا عندما جعلها القره مانليين مركزًا للمتصرفية في القرن التاسع عشر، ثم أكدها الإيطاليون عندما جعلوا سوق مصراتة ثلاثة أيام في الأسبوع كجزء من خطتهم الاقتصادية الرئيسة في المنطقة.

1 - Sifar, Ibrahim, Misurata, a regional study of the town and district. B.A. dissertation, University of Libya, (1963), p.27.

2. نوع من السجاد المنسوج باليد

3 - Royal Geographical Society, Records of the African Association 1788-1831, (1964), pp. 67-68.

أما فيما يتعلق بالتوسع المعماري الذي شهدته مصراتة أثناء الحكم العثماني لها (1565-1911م) ، فإنه يلاحظ الفرق بين المباني ذات الطابع العربي والمحلي بشكل أساسي، والمباني التي استمدت طبيعتها وإلهامها من الإدارات التركية والقره مانلية، فقد كانت أغلب المباني ذات الطابع المحلي العربي في شمال وغرب المدينة قبل بناء المدينة في العهد العثماني، في حين يظهر الطراز العثماني في المبنى التجاري والإداري في الجنوب والجنوب الغربي، (الشكل 7)، وقد تأثر برنامج توسيع المدينة باتجاه الشمال والشمال الغربي خلال فترة الحكم العثماني **بثلاث عوامل رئيسية** : موقع المقبرة، وأهمية الأراضي المنخفضة لحفر الآبار، ووجود قرية المقاوبة الصغيرة شمال البلدة، ولعل أقدم مبنى بالمدينة هو المبني الذي بجوار مسجد الشيخ ثم المبنى الكبيرشرق المقبرة في طريق الخروج باتجاه المقاوبة، علماً بأن، مصراتة والمقاوبة خلال القرن التاسع عشر كانتا منفصلتين، إلا أن التطور العمراني الذي شهدته كل من المدينة والقرية لاحقاً أدى إلى اندماج المقاوبة كبلدة في اطارمدينة مصراتة.

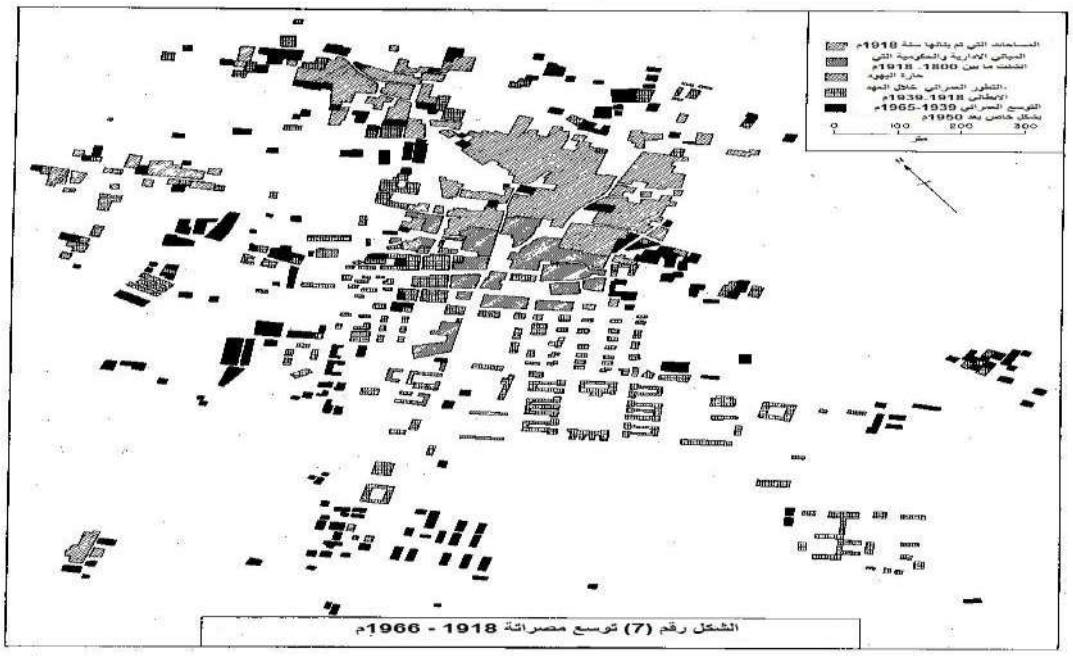

الشكل رقم (7) توسع مصراتة 1918 - 1966م

ثم أنجزت سلسلة من المباني الأخرى جنوب غرب المدينة خلال القرن التاسع عشر، وقد أدت أهمية مصراتة المتنامية كسوق إقليمي إلى ظهورعدة شوارع تحتوي على محال تجارية وورش حول ميدان القرضابية، وبناء سوق مغطى للفواكه والخضروات، أما المباني المجاورة لميدان النصر فقد أنشئيت منذ حوالي مائة سنة مضت، وهي تشتمل على مجموعة من الأسوق الصغيرة كسوق الزيت وسوق العطارة، وفي وقت لاحق من هذا القرن، تم بناء مجموعة أخرى كبيرة من المحلات التجارية بجوار "ما سيصبح لاحقًا المدينة الإيطالية".

لقد كان النشاط التجاري مع مطلع القرن، يتركز بشكل كبير حول ميدان النصر، أما البناء السكني فلم يكن واسعًا خارج البلدة العربية، على الرغم من ظهور بعض المنازل ذات الطراز التركي في إطار تطور المباني التجارية التي شهدتها المدينة، في حين أن المبنى الإداري للمتصرفية، والثكنة الصغيرة، ومبنى البلدية، تم تشييدها في القرن التاسع عشر بعد أن أصبحت مصراتة المركز الرئيسي للمتصرفية.

بالرغم من أن الغزو الإيطالي لليبيا قد بدأ عام 1911م ، إلا أن المنطقة الواقعة شرق طرابلس لم تخضع للحكم الإيطالي المطلق حتى عام 1922م، حين تم تقسيم إقليم طرابلس إلى محافظتين عاصمتهما طرابلس ومصراتة، وبالإضافة إلى إعلان مصراتة كعاصمة إقليمية، عمل الإيطاليون أيضًا على أن تصبح أيضًا مركزًا إقليميًا للخدمات الاقتصادية والاجتماعية للمستوطنات الجديدة الضخمة التي تم إنشأها في الدافنية والكراريم وطمينة بعد عام 1937م ، وقد اهّلها موقعها المثالي بإمتياز للقيام بذلك، وهكذا وخلال فترة وجيزة شهدت مصرته تطورات كبيرة جدًا بالتزامن مع المهام والأدوار الجديدة التي تبوأتها المدينة على مختلف الصُعد: اجتماعيًا: (مستشفى ، مدارس ، فندق ، سينما ،.. إلخ) ، اقتصاديًا (بنوك ، سلخانات، محطة كهرباء) ، وإدارياً (ثكنات ، مكاتب ، دوائر حكومية... إلخ)، كما شهدت المدينة ظهور حي أوروبي صغير مكتمل بكنيسته الخاصة، وتمت إضافة مبانٍ جديدة إلى السوق، إضافة إلى إنشاء طريق معبد إلى بنغازي يمر عبر البلدة القديمة، وإعادة تشغيل ميناء قصر أحمد

لفترة وجيزة باسم "مرسى مصراتة"، حيث بُذلت جهود مضنية لإنشاء مدينة جديرة بمكانة عاصمة المقاطعة، ألحقت بها حديقة عامة جميلة، وتم بناء أرصفتها بالبلاط ، وزُينت جنبات طرقها بالزهور ذات الألوان الوردية والبيضاء والصفراء.

للأسف وكما هو متوقع، فإن معظم هذه التطورات، بما في ذلك خدمات الكهرباء والمياه الصحية، لم تفيد البلدة القديمة، ومع ذلك، فإن ماأنجزه الإيطاليون يعتبرمهمًا ليس بسبب تأثيره على عمران المدينة فقط ولكن بسبب التطورات الاقتصادية الجديدة التي شهدتها المنطقة في وقت كانت فيه في طريقها إلى فترة من التدهور النسبي، حيث كانت سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة سنوات ركود اقتصادي عام في المنطقة، كان من أبرز نتائجه الإنخفاض التدريجي لعدد سكان المدينة حتى أواخر الخمسينيات، حتى أن الجالية اليهودية التي كان يقدر عددها بـ 912 نسمة في بداية عام1949م غادرت المدينة جميعها مع نهاية العام[1]، كما استمرت هجرة العرب، بنسبة كبيرة وبشكل غيرطبيعي، إلى أجزاء أخرى من ليبيا وإلى دول شمال إفريقيا.

أما بعد إعلان إستقلال ليبيا سنة 1951م ، فقد أصبحت مصراتة المقر الإداري لإحدى المقاطعات الخمسة المكونة لولاية طرابلس (الخريطة1) ، وبالتالي فقد فقدت أهميتها التي كانت تكتسيها قبل الحرب حين كانت منطقة ادارية مساوية لطرابلس نفسها.

ثم بدأت مصراتة تشهد ازدهارًا اقتصاديًا - مع بداية ستينيات القرن الماضي - كنتيجة غير مباشرة للصادرات النفطية الليبية الهائلة، حيث أحدث إكتشاف النفط تحولاً كبيرًا في الاقتصاد الوطني وأثر على واقع الحياة اليومية بطرق متعددة، فقد حدثت طفرة كبيرة في البناء والعمران سواء على الصعيد الرسمي الحكومي من خلال بناء المدارس، والأحياء العسكرية، والمعاهد والمراكز التقنية، أوعلى صعيد الاستثمار الخاص في المنازل الذي وصل إلى معدل بناء منزل كل يوم تقريبًا منذ عام 1964م، كما ذهب جزء مهم من الرأس المال المحلي والخارجي لإنشاء المباني الصناعية الصغيرة، ومحطات تعبئة الوقود الجديدة التي تزايدت أعدادها استجابةً للزيادة الهائلة في حركة المرور على الطرق، ومع ذلك فإن تأثيرهذه التطورات العمرانية لم ينعكس بشكل ملحوظ على المنظر العام للمدينة، نظرًا لأن أبرزسمات المبانى الحديثة في ليبيا هي طبيعة إنشائها بشكل متباعد (الشكل 7)، ولكن مع تزايد البناء باسخدام نظام الخرسانات سابقة الإجهاد، وانشاء المجمعات السكنية التي حلت محل تقنيات البناء التقليدية، فإن اختفاء الأشكال القديمة للمباني بالمدينة هي مسألة وقت ليس إلا، وقد ظهرت بالفعل مجموعة من المنازل المكونة من طابقين في البلدة القديمة، كما أنشئت أيضًا مجموعة من الوحدات السكنية بنظام الشقق بالقرب من سوق الماشية في عام 1965م.

إن تخطيط وبناء المنازل في البلدة القديمة لم يتغير على مر العصور، حيث أن الوحدة الأساسية للأسرة هي "الحوش" الذي يوجد بشكل أو بآخر في جميع أنحاء العالم العربي، بساحته الداخلية المميزة، وسقفه المسطح، وندرة نوافذه، وقد يستوعب "الحوش" عدد من العائلات التي يربط بينها صلة قرابة، وبالرغم من ذلك فإن تصميم "الحوش" يسمح بالخصوصية للأسرة من ناحية، كما يسمح بالتواصل الاجتماعي في فنائه من ناحية أخرى، اضافة إلى أن المنازل المجاورة ، التي غالبًا ما يمتلكها الأقارب، ترتبط ببعضها البعض مما يؤدي إلى تكوين أحياء مترابطة أجتماعيًا في جميع أنحاء المدينة (الشكل 8)، وتشير الأفنية الواسعة في **قرية رأس علي** (الشكل 8 أ) إلى مدى تعديل أنماط البناء التقليدية من خلال ارتفاع قيمة الأراضي في الأماكن الحضرية، كما أن الشوارع في مصراتة القديمة كانت ضيقة، مما يعكس أهمية النقل على ظهور الدواب سابقًا بدلاً من النقل بالعجلات المجرورة، وربما بسب رغبة العاملين في الاحتماء من حرارة الشمس واستخدام الطرق الآمنة أيضًا، ولعل اللافت في الأمر أن شوارع الحارة هي الأضيق على الإطلاق، ولكن بخلاف ذلك ، تبدو أغلب البيوت متشابهة كما هي في الحي العربي المحيط.

1 - Landschut S., Jewish communities in the Muslim countries of the Middle East, (1950), p. 92.

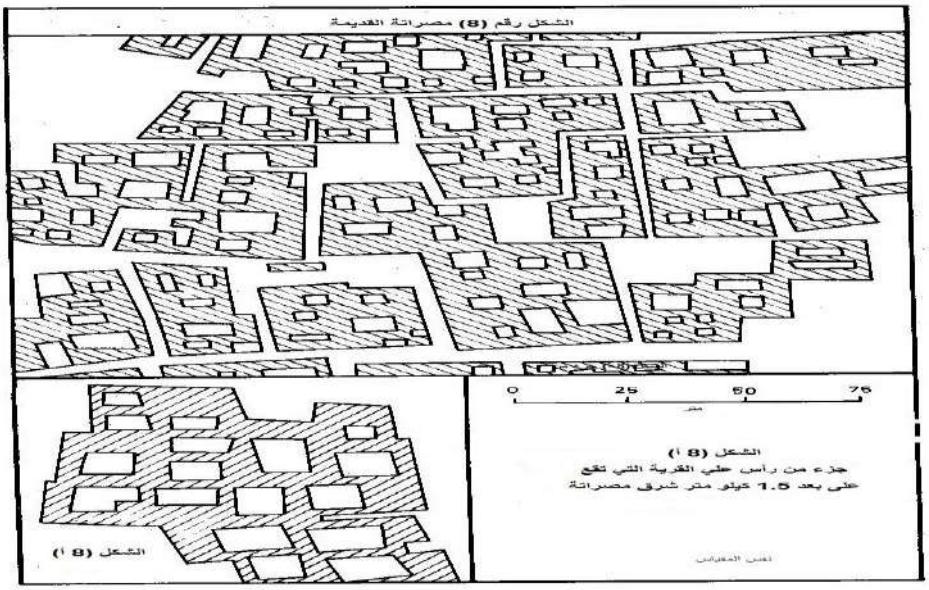

لقد استمر طراز البناء المترابط بالمدينة حتى بداية هذا القرن عندما بدأ ظهور عدد من المنازل المعزولة ومجموعات صغيرة من المنازل في ضواحي المدينة، حيث يبدو أن هذا الطراز المعماري قد بدأ في الإختفاء التدريجي منذ ذلك الحين.

وكأغلب مدن الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، كانت مصراتة تتكون من جزئين: مدينة قديمة على الطراز العربي حيث كان التطور والنمو تقليدي وبطئ ودون تخطيط ، ومدينة جديدة على الطراز الأوروبي تم إنشاؤها بشكل غير ملائم على أنقاض المدينة القديمة.

إن مهمة وضع خطة رئيسية لتنمية وتطوير المدينة بشكل عام - وهي مهمة ليست سهلة بالطبع - يضطلع بها الآن مستشارون أمريكيون وبريطانيون، ولعل أبرز المشاكل المعاشة حالياً هي مشكلة تقديم خدمات - الكهرباء، والمياه والصرف الصحي، وتصريف مياه الأسطح - في البلدة القديمة، حيث الشوارع المتعددة قصيرة وضيقة، وبالرغم من ذلك، فقد تم في عام 1966م، نقل المياه بالأنابيب إلى 1300 منزل في البلدة القديمة مقارنة بـ 500 في عام 1964م، كما توجد مشكلة أخرى تتعلق بإنشاء شبكة طرق قادرة على التعامل مع العدد المتزايد من المركبات المملوكة محليًا وتسهيل دخولها إلى البلدة القديمة (الجدول 1). وأخيراً، يجب أن يكون التخطيط للتنمية المستقبلية وفقًا لمعايير اجتماعية واقتصادية وإنشائية سليمة.

الجدول 1: المركبات المسجلة في مصراتة في شهر يوليو 1966م

سيارات الأجرة	**20**
المركبات التجارية	**549**
السيارات الخاصة	**395**

المصدر: إدارة ضرائب السيارات بمصراتة

وباعتبار أن مصراتة مازالت تعتبر سوق أو "مركز تجاري" صغيرنسبيًا، فإن البناء غير المنظم للمنازل والمتاجر والمباني الإدارية لازال يؤدي الغرض المطلوب منه بشكل مقبول لأن المسافات بين أماكن الخدمات تعتبر قصيرة نسبيًا، والتنافس على شراء الأراضي لازال محدودًا، ولكن مع تزايد التنمية في السنوات الأخيرة في مصراتة، وبشكل خاص في غرب وجنوب المدينة، حصل إهداركبير للأراضي الزراعية (الشكل 11)، علاوة على ذلك ، فإن مصراتة الآن أصبحت ليست مجرد سوق "مركز تجاري" صغير، بل على الرغم من صغر حجم صناعاتها، إلا أنها أصبحت الأن من بين الصناعات الأسرع نموًا في ليبيا[1]، كما تزايدت أهميتها كمركز للطرق يتطور يوميًا مع ازدياد حركة المرور على طريق بنغازي - طرابلس، وبرزت بشكل ملحوظ

1 -Ministry of Economy and Trade, Tripoli. Report of the industrial census, (1964), pp. 50-51.

كمركز إقليمي مهم مستقبلًا في الخطط طويلة الأجل لرابطة المستوطنات الزراعية الوطنية (NASA) الخاصة بإعادة اعمار المستوطنات الإيطالية السابقة، لكل هذه الأسباب، فأن الخطة الرئيسية لتنمية مصراتة تحتاج لوقت طويل.

4. الحياة التجارية:

المناطق الداخلية أو"النائية" لسوق مصراتة

تشغل المناطق الداخلية النائية لسوق مصراتة مساحة واسعة النطاق بشكل كبير، حيث تشمل معظم الأجزاء المأهولة بالسكان من متصرفية مصراتة (التي كان عدد سكانها 72,985 نسمة في عام 1965م)، بالإضافة إلى أربع مناطق صغيرة هي سوكنة وهون وودان وبني وليد ، والتي لا يمكن أن يزيد عدد سكانها جميعاً عن 10000 شخص (الخريطة 2)، بالتالي ، فإنه على الرغم من حجمها الكبير، فإن إجمالي عدد سكان المناطق الداخلية النائية يبلغ حوالي 83000 شخص منهم 19000 يعيشون في مصراتة نفسها، وفقًا لتعداد السكان عام 1964م ، حيث يمكن اعتبار 75 ٪ من هؤلاء السكان مستقرين ، و 10 ٪ منهم شبه رحل و 15 ٪ بدو رحل[1].

ويمكن قياس حجم تعامل السكان مع سوق مصراتة من خلال الربط بين المسافة وإمكانية الوصول للسوق والضرورة أو الحاجة الاقتصادية للتسوق، حيث يوضح (الشكل 4) ثلاث فئات رئيسية دائمة التعامل مع السوق ، ترتبط كل منها بشكل كبير جدًا مع ثلاث مناطق متباينة في استخدام الأراضي، أبرزها المنطقة الصغيرة نسبيًا المكتظة بالسكان والمنتجة زراعيًا حول مصراتة نفسها حيث يأتي معظم المزارعين إلى السوق مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع، وتشمل هذه المنطقة واحات مصراتة وتاورغاء والمستوطنات الإيطالية السابقة في الغرب والجنوب حيث يتم إنتاج كميات كبيرة ومتنوعة من المنتجات والمحاصيل المروية التي تتطلب تسويقًا متكررًا، في حين تنتشر خلف هذه المنطقة زراعة الحبوب وخاصة عندما تكون نسبة هطول الأمطار مرتفعة بالقرب من الساحل، كما تكثر منتجات الأشجار (كالزيتون والتمور والتين) في محيط بني وليد، وهي تستوعب نسبة قليلة من السكان، كما أن الحبوب لا تتطلب تسويقًا متكررًا، أما في المنطقة الثالثة، فتسود حياة البداوة والترحال بحثاً عن المراعي، التي ينذر معها زيارة سوق مصراتة، وقد كان البدو الرحل- في وقت من الأوقات - يجلبون الجمال إلى مصراتة، ولكن في الوقت الحاضر عادة ما يتم بيعها مباشرة للتجار ويتم نقلها إلى الأسواق عن طريق البر، بعد جمعها في مراكز مثل بني وليد وبو نجيم وسرت، كما لا يزال البدو يزورون سوق مصراتة لشراء السلع والمواد المنزلية وغيرها.

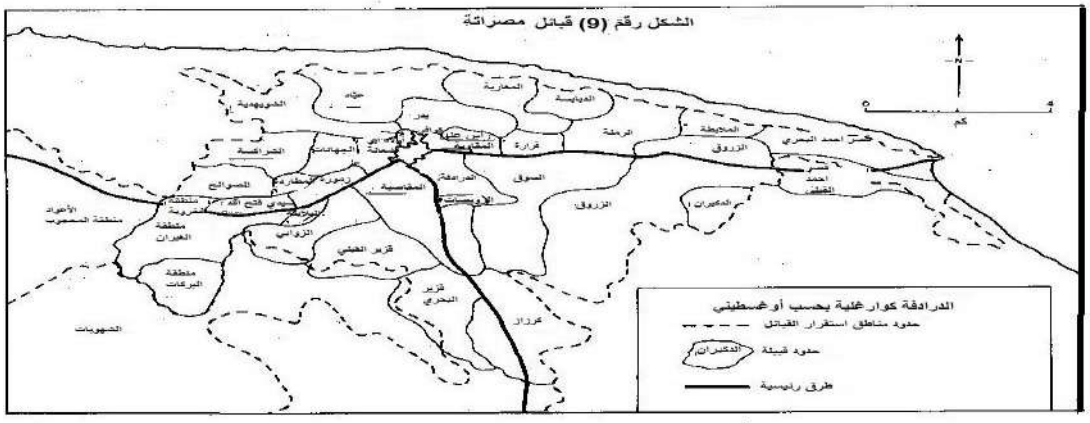

عند محاولة تعيين حدود المناطق الداخلية لمصراتة، من المهم التمييز بين البضائع والأشخاص لأن الاثنين نادرًا ما يتطابقان، فلقد أدت الأنشطة التجارية المتطورة للغاية لبعض سكان مصراتة إلى إنشاء مناطق تجميع لبعض البضائع تتجاوز بكثير تلك المخصصة للناس، ولعل من أبرزالأمثلة على ذلك شراء الإبل في فزان، وزيت الزيتون في ترهونة ، واللوز في الخمس، ولكن الأكثر إثارة للدهشة هي حمولات شاحنات الحطب (Acacia

1 - Census and Statistical Dept., Tripoli, General Population Census, 1964, p. 84.

tortilis) التي تعاقد عليها تجار مصراتة والتي صادفها نيوتن كييت (Newton-Keith) خارج السبخة، على بعد أكثر من ألف كيلومتر[1] .

وبالمثل ، فإن دور المدينة كمركز للخدمات الاجتماعية لا يناسب المناطق الداخلية النائية، فمستشفى مصراتة الذي قوامه 180 سريرًا وبه 10 أطباء عام 1966م هو المستشفى الوحيد بين بنغازي وطرابلس، حيث يأتي إليه المرضى من فزان في الجنوب، وسرت في الشرق وما وراء زليتن في الغرب، كما أن أكثر من نصف الطلاب في المرحلة الثانوية يأتون من خارج المدينة نفسها، بما في ذلك عدد من طلبة مدينة زليتن الواقعة خارج نطاق المجال الاقتصادي لمصراتة، ومع ذلك ، فإن هذا الاختلاف غير ذي أهمية في ضوء دور مصراتة الضعيف نسبيًا كمركز اجتماعي.

يوجد في إطار مدينة مصراتة سوقان صغيران، هما سوق زاوية المحجوب وسوق تاورغاء (الشكل 4)، وتاورغاء هي واحة صغيرة يبلغ عدد سكانها حوالي 1200 نسمة وتقع على بعد 45 كيلومترًا جنوب مصراتة، وقد أنشئ سوقها على ما يبدو لتلبية احتياجات الواحة نفسها، وممارسة التجارة المحدودة مع مجموعات البدو في المناطق المحيطة، وعلى الرغم من إمكانية ممارسة نشاط الزراعة حول تاورغاء، بسبب توفر مصادر مياه جيدة بها، إلا أن الأنشطة الاقتصادية التقليدية الوحيدة الجديرة بالملاحظة بها كانت التمور والحصائر التي تصنع باستخدام القصب الذي يتم تجميعه من المستنقعات المحيطة، ولذلك كان المزارعون من قرية الكراريم يأتون إلى تاورغاء لبيع الفواكه والخضروات.

في المقابل كان سوق الجمعة الذي يعقد بزاوية المحجوب أصغر بكثير من سوق الأثنين وسوق الخميس اللذان يعقدان بتاورغاء، وقد يكون مرد ذلك إلى أن مصراتة كانت تبعد عن زاوية المحجوب اثني عشر كيلومترًا فقط، إلا أن العامل الأكثر أهمية - في ذلك - هو كميات المحاصيل المروية الكبيرة جداً التي تنتجها زاوية المحجوب بسبب توفر االكميات الوفيرة من مياه الآبارالموجودة بها، ومع ذلك، فإن أسواق تاورغاء وزاوية المحجوب لا تنافسان بشكل فعلي سوق مصراتة، وذلك بسب الترتيب المنظم "غير المتعارض" - لأيام الأسواق - المتبع في مصراتة كما هو الحال في أجزاء أخرى من منطقة شمال إفريقيا، حيث تعقد الأسواق هنا على النحو التالي:

يوم الأحد - في مصراتة وزليتن

يوم الاثنين - في تاورغاء

يوم الثلاثاء - في مصراتة

يوم الأربعاء - في زليتن

يوم الخميس - في مصراتة وتاورغاء

يوم الجمعة - في زاوية المحجوب

إن الأسواق الواقعة على أطراف الصحاري الكبرى لا تتميز بنفس العلاقة البسيطة التي تربط الريف بالمدينة التي كانت سائدة في أوروبا في العصور الوسطى، والتي تلعب فيها المسافة دورًا حاسمًا ، وإنما تتأثر تلك العلاقة من نواح كثيرة، بوصول البضائع إلى أقرب مدينة كميناء بحري، ولذلك، فإن نشوء أو تكون المناطق الداخلية النائية لسوق مصراتة لم يتأثر فعليًا بالمنافسة مع الأسواق الأخرى باستثناء مدينة زليتن في الشمال الغربي، حيث أنه وعلى الرغم من أن سوق زليتن كان أصغر من سوق مصراتة، إلا أنه كان يقدم خدمة لمنطقة داخلية دائرة نصف قطرها تتراوح بين عشرين وثلاثين كيلومترًا من مساحة البلدة، كما أن الحد الفاصل بين أسواق مصراتة وزليتن يتم تحديده - في الغالب - من خلال المسافة في منتصف الطريق بينهما، والتي يبدو أنها كانت تقاس بدقة متناهية.

إن كثافة النشاط التجاري في الأسواق التقليدية بالمدن مثل سوق مصراتة لا تعتمد على توزيع السكان وكثافتهم داخل المناطق الداخلية المجاورة فحسب، بل تعتمد أيضًا على مدى قدرة تلك المناطق على خلق فرص ومجالات لطلب تبادل السلع، فتبادل المنتجات بين المناطق الزارعية والمناطق الرعوية مثلًا لازال يمثل أهمية خاصة لإقتصاد مصراتة بشكل كبير، في حين أنه ربما يكون أقل أهمية بالنسبة لإنتاج المحاصيل المروية الذي تختص

1 - Newton-Keith A., Children of Allah, (1966), p.166.

به واحة مصراته نفسها، ففي عام 1960م مثلًا، كانت هناك 6700 مزرعة في مديرية المحجوب والزروق (اللتان تشكلان واحة مصراتة) تم تخصيص 3900 منها للزراعة البعلية لإنتاج الشعير والقمح، في حين أن المزارع المتبقية والبالغ عددها 2800 والتي تعتبر- ولو بشكل نسبي - من الأراضي المروية فإنها لم تكن مخصصة لأنتاج محاصيل معينة بل نسبة تخصصها في انتاج محصول معين كانت ضئيلة جداً[1] (الجدول 2).

الجدول 2: نسبة المزارع المروية في مديرية المحجوب والزروق المنتجة لمحاصيل مروية محددة (1960م)

الذرة الرفيعة	%29.7	الطماطم	%16.4
الفلفل الأحمر	%26.3	الجزر	%15.0
الفول	%23.4	الفلفل الأخضر	%13، 1%
البطيخ (أنواع مختلفة)	%18.2	الذرة	%9.7
محاصيل للأعلاف	%17.8	الفول السوداني	%2,4
البصل الجاف	%17.0	البطاطس	%2، 2

المصدر: الاحصاء الزراعي 1960. وزارة الزراعة طرابلس (1962)، 133-245

يتضح من خلال النسب الواردة بالجدول السابق حجم تبادل المنتجات الزراعية بين سكان الواحات أنفسهم، كما تبين عائدات محاصيل مديرتي المحجوب غرب مصراتة والزروق إلى الشرق منها تخصص المناطق في إنتاج محاصيل معينة (الجدول 3)، اضافة إلى أن المياه الجوفية كانت أكثر وفرة وأقل ملوحة في غرب مصراتة وبالتالي فإن انتاج المحاصيل في هذه المنطقة كان أكثر ارتفاعًا منها في منطقة شرق مصراتة، أما في مديرية الزروق ، فتكثر أعداد الإبل والماعز والخيول نتيجة وفرة المراعي في سبخة تاورغاء.

جدير بالملاحظة أيضاً، أنه إلى جانب المحاصيل الموضحة في الجدول التالي (رقم 3)، تتم زراعة محاصيل أخرى على نطاق محدود للبيع في سوق مصراتة ؛ مثل الخس والبازلاء الخضراء والباذنجان واللفت والفجل بالقرب من مصراتة، ويتم زراعة الخوخ والبرقوق والكمثرى والتفاح في المستوطنات الإيطالية السابقة في الدافنية وطمينة.

الجدول 3: إنتاج محاصيل مروية مختارة شرق وغرب مصراتة ، 1960م.

زاوية المحجوب (غرب مصراتة) - الزروق (شرق مصراتة)

المحاصيل	**الزروق (شرق مصراتة)**		**زاوية المحجوب (غرب مصراتة)**	
	الكمية بالقنطار	النسبة المئوية	الكمية بالقنطار	النسبة المئوية
محاصيل علفية	3367	63.2	1959	36,8
البطيخ (مختلف)	3310	65.9	1719	34.1
الذرة الرفيعة	137	5.5	2395	94.5
الفلفل (الأحمر والأخضر)	659	26.	1862	73.8
الجزر	253	10.2	2228	89.8
البصل الجاف	1491	77.8	426	22.2
البطاطا	235	24.1	737	75.8
الفول السوداني	16	2.4	654	97.6
الخيار	498	98.0	10	2.0
الذرة	43	8.9	442	91.1

المصدر: الإحصاء الزراعي 1960م، وزارة الزراعة طرابلس (1962) 133-245.

1 - Ministry of Agriculture, Tripoli. Census of Agriculture,(1962), 133-245.

كما يظهر واضحًا أن التصنيع المحلي للبضائع التي تعرض للبيع في سوق مصراتة ترتبط أيضًا باختصاص القبائل المختلفة تقليديًا في إنتاج سلع معينة (الشكل 10).

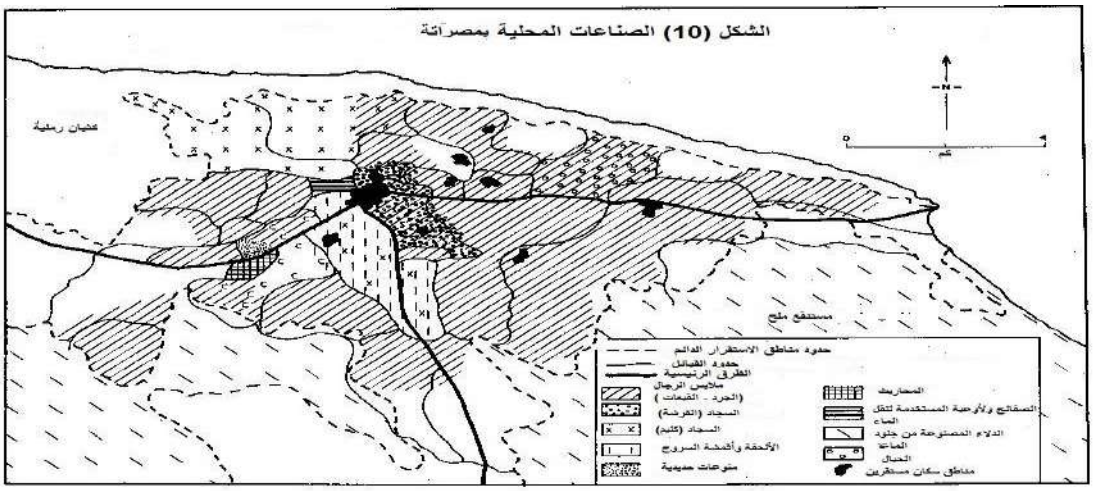

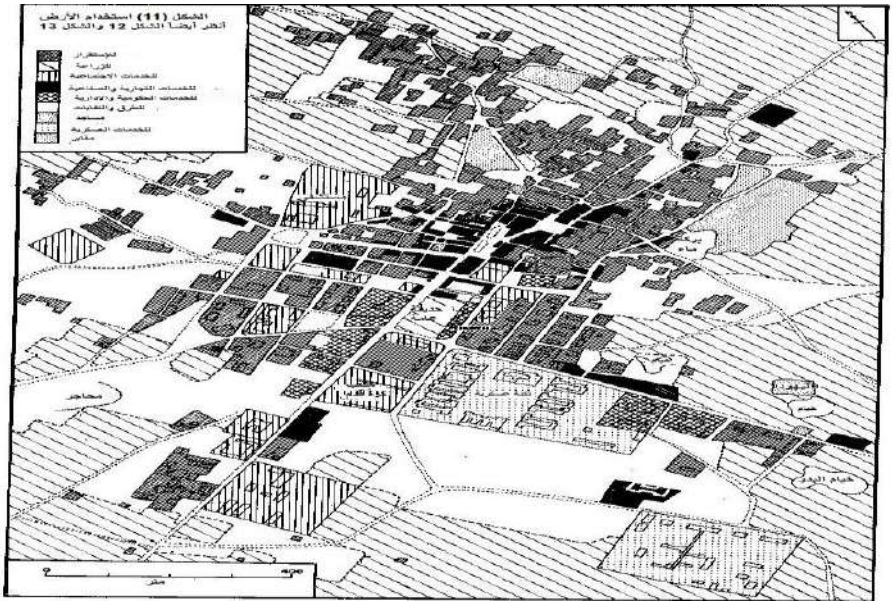

إن تحديد الكيفية والفترة الزمنية التي ظهر فيها هذا التخصص في انتاج السلع بالضبط هو أمر خارج إطار هذه الدراسة، ولكن من المناسب الإشارة إلى أن السلع المصنعة في واحة مصراتة كانت ذات طابع تكاملي ولا يتم إنتاجها بشكل عام إلا لتلبية الطلبات المحلية المحدودة، كما يبدو أن قيام - قبيلة ما - بإنتاج أو تصنيع سلعة معينة لسوق مصراتة يصبح اختصاصًا أو امتيازًا معترف به - من القبائل الأخرى - ولم تنشأ منافسة - في ذلك - بين القبائل، ولعل أفضل مثال على هذا التكامل هو تخصص (البلابلة) في صناعة المحاريث الخشبية، و(الحَدَادّة) في صناعة الحدوات الحديدية للأحذية والنوافذ المعدنية وحدوات الخيول.

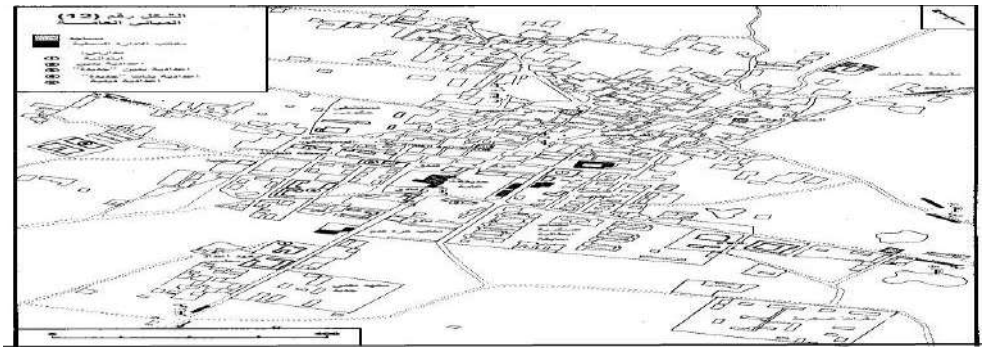

إن هذا التحديد لصنع المنتجات يعتبرأمرًا مهمًا جدًا نظرًا لأنه لا توجد منتجات منزلية، باستثناء قرب المياه المصنوعة من جلد الماعز وحصائرتاورغاء (غير المذكورة في الجدول 10) التي تصنع حصريًا من المواد الخام المنتجة محليًا، فبعض المواد، ولا سيما الصوف الخام، تأتي بكميات كبيرة من أماكن بعيدة، وبالتالي لم يكن سوق مصراتة مجرد مركز لتبادل المنتجات بصورتها النهائية ولكنه كان يوفر أيضًا المواد الخام الأساسية لبعض الصناعات، مثل سجاد مصراتة الجميل المنقوش باللون الأحمر والأبيض والأسود والذي يعتبر المنتج المحلي الوحيد الذي يُباع بانتظام خارج المناطق الداخلية النائية المكونة لمصراتة والمشار إليها في (الشكل 2)، حيث يشتري تجار طرابلس كميات كبيرة مما يعُرف بسجاد "كليم" الكبير وسجاد (الفرشة) الأصغرحجمًا، وبصرف النظر عن محدودية إنتاج السلع محليًا في مصراتة، فإن جميع السلع المصنعة تقريبًا والمواد الغذائية المصنعة تأتي من طرابلس ويتم توزيعها من خلال تجار الجملة في مصراتة، ومعظم هذه البضائع يتم استيرادها إلى ليبيا من عدد من البلدان يمكن أخذ صورة عنها من خلال الكشف التالي الخاص بعملية جرد لمتجر عام صغير:

سيلان	**(الشاي)**	**اليابان**	**(السردين)**
جمهورية الصين	**(البودرة مسحوق تجميل)**	**بولندا**	**(الحلوى)**
تشيكوسلوفاكيا	**(الأحذية)**	**إسبانيا**	**(الحبال)**
اليونان	**(المنظفات)**	**المملكة المتحدة**	**(المصابيح)**
هولندا	**(الخميرة)**	**الولايات المتحدة**	**(المشاعل)**
إيطاليا	**(الشموع)**	**الاتحاد السوفيتي.**	**(مواقد البارافين)**

إحصاء يوم السوق بتاريخ الخميس 21 يوليو 1966م

إن القيام بإجراء إحصاء دقيق لعدد الأشخاص الذين يدخلون لمصراتة "يوم السوق" يعتبر أمرًا من الصعوبة بمكان وذلك: **أولًا**: لأنه كان من المستحيل تغطية كل الطرق الجانبية والتأكد يقينًا من عدم دخول أشخاص إلى المدينة دون أن يلاحظهم أحد، **ثانيًا**: أن نسبة غير معروفة ممن يدخلون إلى مصراتة كانوا من القادمين للعمل بشكل يومي وليسوا من القادمين للسوق، حيث أن أغلب راكبي الدراجات الذين يصلون إلى مصراتة بين الساعة 6.30 و 8.00 صباحًا يمكن إعتبارهم من ضمن هذه الفئة، **ثالثًا:** نظرًا لأن الشكل الأكثر شيوعًا لنقل الركاب كان استخدام سيارات النقل نوع بيجو "Peugot" المغلقة ، فقد كان من الصعب تقدير عدد الركاب بدقة تامة، ومع ذلك فإن نتائج الإحصاء الذي أُجري يوم الخميس 21 يوليو 1966م لعدد الداخلين للسوق يستحق بعض التعليق.

فقد كان عدد الأشخاص الذين تم تسجيلهم على أنهم ممن دخلوا المدينة في ذلك اليوم أو تواجدوا بالقرب من إحدى نقاط الإحصاء السبع الرئيسية بين الساعة 6.00 و 10.30 صباحًا هو 6887 (الشكل 5)، يضاف إلى ذلك، وصول حوالي 130 بائع فواكه وخضروات قبل الساعة 6.00 صباحًا لتأمين مكان جيد للبيع في السوق المفتوحة، وبالتالي، تجاوز العدد الإجمالي لزوارالمدينة في ذلك اليوم الـ 7000 زائر، أي ما يقرب من 11٪ من إجمالي سكان المناطق الداخلية لمصراتة، وهو رقم يمثل نسبة عالية من إجمالي السكان الذكور البالغين، ونظرًا لأن الأسواق التي تعقد كانت أيام الخميس والأحد كانت تتمتع بحضور أفضل من السوق الذي كان يعقد يوم الثلاثاء، وكذلك الأسواق في فصل الصيف كانت تتمتع بحضور أفضل مقارنة بأسواق الشتاء، فقد يكون هذا الرقم أعلى من المتوسط، إلا أنه يعتبر مؤشر جيد على أن سوق مصراتة لا زال يحظي بأهمية كبيرة.

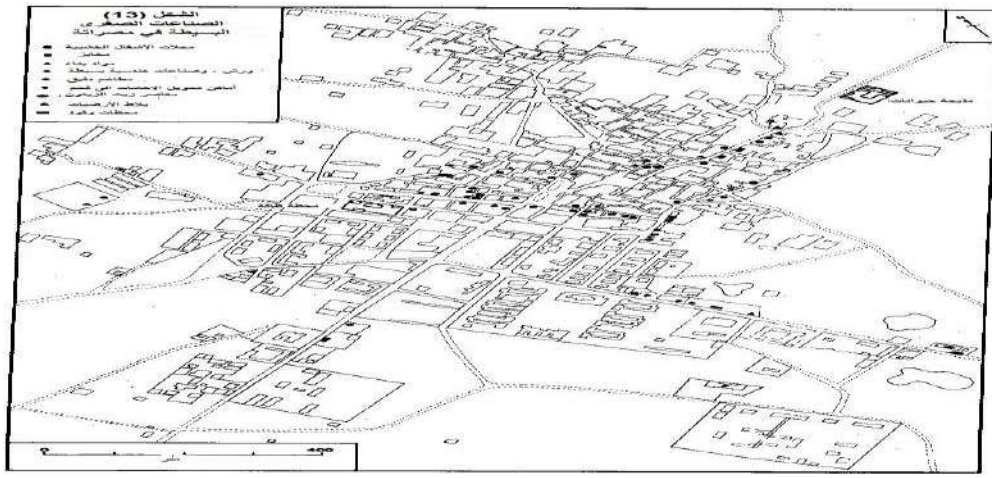

يوضح الجدول (رقم 4) الأهمية النسبية لأساليب السفر المختلفة، حيث أن العدد الأكبر كان يصل إلى المدينة بإستخدام السيارة كوسيلة نقل، وبشكل خاص سيارة النقل بيجو "Peugot" التي تستخدم كسيارة نقل للركاب - بأسعار رخيصة - بين المدينة والمناطق المحيطة بها، ويتم استخدامها أيضًا لنقل البضائع، كما تستخدم الحافلات لنقل الركاب على طريق زليتن - مصراتة، حيث كانت الحافلات الثلاث التي وصلت إلى مصراتة قبل الساعة 11.00 صباحًا بشكل عام ممتلئة.

الجدول 4: الأشخاص الذين دخلوا مدينة مصراتة يوم 21 يوليو 1966م بين 6.00- 10.30 صباحًا ووسائل نقلهم

نقطة التعداد	وسيلة النقل				
	السيارات	السير بالأقدام	العربات المجرورة بالحيوانات	الدراجات	المجموع
A	613	381	304	540	1,838
B	712	31	259	297	1,299
C	644	159	160	316	1,279
D	271	275	85	192	823
E	199	89	153	201	642
F	325	85	88	70	546
G	124	83	103	128	438
المجموع	2,888	1,103	1,152	1,744	6,887

(انظر الشكل 5)

إن الإقبال المتزايد على التنقل بإستخدام المركبات الآلية، بدلًا من النقل بإستخدام الحيوانات، قد ساعد مصراتة في الاحتفاظ بأهميتها التقليدية كمركزاقتصادي محوري في وقت أصبحت فيه الدوافع الاجتماعية للذهاب إلى السوق أقل أهمية، حيث كان السوق في الماضي، المكان الرئيسي لتبادل الأخبار وانجازبعض المعاملات والمهام الاجتماعية، أما جيل الشباب اليوم فيرى أن يوم السوق هو مجال للنشاط التجاري فقط ولا داعي للمجئ للسوق لغير ذلك، خاصة إذا كانت الطريقة الوحيدة للسفر هي استخدام الدواب "كالحمير أو الخيول".

لقد وفر النقل بالسيارات بديلاً سريعًا اجتذب المزارعين للسوق بشكل كبير، كما ساعد مرور الطريق المعبد الذي أقامته إيطاليا بمحادة المناطق الأكثر اكتظاظًا بالسكان شرق وجنوب مصراتة على استخدام السيارات بشكل كبير في السنوات الأخيرة، ومع ذلك ، يظهر واضحًا أن الرجال الأكبر سنًا لا يزالون أكثر ميلًا للذهاب إلى السوق أكثر من الشباب وصغار السن، وربما مرد ذلك إلى توافق الأسر على أن الأباء كبار السن ربما يكون أداؤهم أفضل في عمليات البيع والشراء من قدرتهم على العمل الزراعي في الأرض، إلا أن ذلك، قد يكون أيضًا علامة على الأهمية الاجتماعية المتراجعة - حاليًا - ليوم السوق.

يظهر الجدول (رقم 4) أن النسبة الأعلى للدخول لسوق مصراتة تكون بداية قبل الساعة 6:30 صباحًا حين تأتي أعداد كبيرة من السيارات التي تحمل الأشخاص مع بضائعهم لبيعها في السوق، ثم بعد الساعة 7.00 صباحًا تأتي نسبة أخرى أعلى من القادمين للسوق بوسائل نقل مختلفة وهي تشمل المشترين والبائعين، ثم تتوقف حركة الدخول للسوق تقريبًا بحلول الساعة 10.15 صباحًا.

أما مغادرة السوق فيمكن ملاحظتها منذ الساعة 8.30 صباحًا حيث يغادر السوق عدد كبير من الأشخاص سيرًا على الأقدام، كما لوحظ أن أول عربة مجرورة بالحيوانات غادرت السوق كانت حوالي الساعة 9.00 صباحًا، ثم بدأت المركبات في العودة للبلدة مع الساعة 9.45 صباحًا، وسُجل أعلى معدل لمغادرة الناس للسوق على تمام الساعة 11.30 صباحًا ، وبحلول فترة ما بعد الظهيرة أصبحت الحياة التجارية للمدينة تمامًا مثل بقية الأيام الأخرى التي لا يعقد بها السوق، ويمكن تفسير حركة الدخول والخروج المتسارعة للسوق في غضون سبع أو ثماني ساعات بشكل عام برغبة الناس في العودة إلى منازلهم قبل الظهيرة التي تمثل الجزء الأكثر سخونة وارتفاعاً لدرجة الحرارة من اليوم. (الجدول 5).

الجدول 5: درجات الحرارة (حسب مقياس فهرنهايت) ومعدلات الرطوبة في مصراتة يوم 21 يوليو 1966م

الساعة (حسب توقيت غرينتش)	00	03	06	09	12	15	18	21
درجة الحرارة (حسب مقياس فهرنهايت)	77.0	75.2	74.7	89.6	103.1	103.1	82.4	80.6
الرطوبة	81	76	78	44	21	30	78	83

أقصى درجة حرارة. 107.6 درجة فهرنهايت الحد الأدنى لدرجة الحرارة. 71.8 درجة فهرنهايت

المصدر: دائرة الأرصاد الجوية طرابلس.

يبدو واضحاً من خلال إحصائيات الدخول لسوق مصراتة الأهمية الكبرى للتجارة المحلية بالمدينة من خلال سمتان تظهرهما هذه الإحصائيات، **أولاً:** أن الأعداد، القليلة نسبيًا، للقادمين لمصراتة من الجنوب تشير إلى حجم معقول من المنتجات والبضائع التي تصل إليها من المناطق الداخلية الصحراوية الواسعة الواقعة فيما وراء طمينة، في فترات معينة من السنة، وهي الفترات التي تفضل فيها مجموعات البدو الرحل الاقتراب من المنطقة الساحلية، **ثانيًا:** يمكن القول أن جميع الذين يستخدمون الدراجات للوصول للسوق (25.3٪) أو سيرًا على الأقدام (16.0٪)، وأغلب أولئك الذين يستخدمون الحيوانات- بشكل أو بأخر - كوسيلة نقل (16.7٪) هم من القاطنين داخل واحة مصراتة وليس خارجها، وعلى الرغم من أن ما يقرب من 42 ٪ منهم وصلوا السوق باستخدام السيارات، إلا أن ذلك لايعني أنهم يقيمون بعيداً عن المدينة بل فضلوا المجئ مع سائقي سيارات البيجو Peugot الذين يوفرون خدمة نقل دائمة.

كان من الملاحظ أيضاً أن نسبة السيارات القادمة للسوق انخفضت تدريجياً مع مرور الوقت، والأمر نفسه ينطبق على راكبي الدراجات، باستثناء الساعة الأولى من الاحصاء التي تُبين أن وصول راكبي الدراجات - في ذلك الوقت- يعتبر قليل نسبيًا، كما أن عدد القادمين سيراً تزايد بشكل مطرد حتى الساعة 9:00 صباحًا ثم انخفض بعد ذلك بشكل كبير أيضًا، أما الوصول بإستخدام العربات "التي تجرها الحيوانات، " وهي عادة على شكل عربة بعجلتين يجرها "حمار أو بغل " فقد دخلت واحدة بعد الساعة 6.00 صباحًا بوقت قصير، يستقلها مزارعين لديهم سلع للبيع، وأخرى بعد الساعة 8:00 صباحًا يحتمل أنها تحمل مشترين وليس باعة.

الوحدات التجارية بمصراتة

يبين الجدول (رقم 6) عدد الوحدات التجارية بمصراتة في عام 1966م، مع مراعاة أن العدد ليس نهائيًا ودقيقًا نظرًا لأن بعض الوحدات لا يمكن التأكد من وجودها من عدمه، إضافة إلى أن إحصائيات المخازن العامة ومحال النساجين والبقالات متداخلة للغاية بسبب صعوبة التمييز بينها، وكذلك الأمر بالنسبة "للخياطين" و "النساجين" لأن العديد من الخياطين يبيعون الملابس أيضًا، ولكن على الرغم من نقاط الضعف هذه، فمن الواضح أنه يوجد بمصراتة عدد كبير جدًا من الشركات والمؤسسات التجارية لمدينة يبلغ عدد سكانها 19000 شخص.

الجدول 6: الوحدات التجارية بمصراتة 1966م

متاجر البيع بالتجزئة (518)			
مخازن عامة	135	محلات مواد البناء والدهانات	13
محلات المنسوجات	65	المقاهي ومطاعم	12
البقالات (4 جملة)	45	محلات قطع غيار السيارات	7
محلات الحبوب والبذور	37	محلات الصوف الخام	6
محلات المعدات	33	محلات تصليح الساعات	.6
محلات المجوهرات	26	محلات المواد الكهربائية وأجهزة الراديو	5
صالونات الحلاقة	24	الكتبة العموميون	4
محلات الجزارين	21	محلات تصليح المصابيح	3
محلات السجاد والحصائر	20	المصورون	2
محلات الكيروسين والزيت	19	الصيدليات	1
محلات بيع الدراجات وتصليحها	18	القرطاسية	1
محلات الملابس والأحذية	15		
الصناعات البسيطة	(63)	الحرفيين	(65)
الأعمال الخشبية	24	الخياطون	18
المخابز	8	الحدادون	13
الكتل الخرسانية	8	الإسكافيون	12
الورش	6	صانعوا المحاريث	7
المهن الهندسة	5	القزدارون (الذين يقومون بطلاء الأواني	
مطاحن الدقيق	5	النحاسية بالقصدير)	7
الفحم	2	النحاسون (المتخصصون في اصلاح المعدات	4
معاصر زيتون	2	النحاسية)	
المجازر	1	الصباغون وعمال الجلود	4
مولدات الكهرباء	1	أصحاب الأكشاك	(95)
بلاط الأرضيات	1		
		بائعو الخضار	60
		الجزارون	35

وبصرف النظر عن حجم الصناعات الحرفية البسيطة في مصراتة، فقد كان يوجد بالمدينة قرابة الـ 678 محلاً تجارياً كانت مقسمة بين متاجرالبيع بالتجزئة والورش والأكشاك، التي تدار كأنشطة اقتصادية أُسرية، من قبل اثنين أو أكثر من أفراد الأسرة البالغين خلال أيام الأسبوع، مع الأخذ بعين الاعتبار، أن النساء لا يشاركن في عمليات البيع والشراء في مصراتة، وبالتالي فإن نسبة السكان الذكور العاملين في التجارة في المدينة سواء بشكل دائم أو في بعض الفترات تعتبر مرتفعة جدًا، ولعل السبب الرئيسي لذلك هو عدم وجود فرص عمل بديلة، وهو مايؤكده ارتفاع معدل الهجرة من منطقة مصراتة، لكن هذا ليس هو التفسير الوحيد للأمر[1] لأن العوائد الاقتصادية جيدة بما فيه الكفاية، ويأمل العديد من أصحاب المتاجر المتواضعين تحقيق ثروات مماثلة لإولئك العدد القليل من التجار الناجحين جدًا، الذين يمكن رؤيتهم اليوم يقودون سياراتهم باهظة الثمن جيئة وذهابًا.

أما الغالبية العظمى، من العاملين في الأنشطة التجارية، فإنهم متأثرون كثيرًا بالعوامل الاجتماعية، ربما كنتيجة للدور التاريخي الذي تلعبه المدينة كمركز نشاط تجاري جماعي، يمنح الفرد - بصرف النظر عن حجم مشاركته في هذا النشاط - مكانة اجتماعية ويشركه عمليًا في روح التفاعل الاجتماعي السائدة فعليًا في السوق، الأمرالذي تعززه طريقة الترتيب المتراص للدكايين والمحال التجارية، والتي يبدو أن معظم التجار يعتزون بها بقدر انتعاش تجارتهم.

ما هي العوائد المالية التي يتم الحصول عليها عندما تتعايش العديد من الشركات في منافسة مباشرة مع بعضها البعض؟ لقد لوحظ أن المناطق الداخلية لمصراتة لا تضم أكثر من 83000 شخص، معظمهم من مزارعي الواحات أو الرعاة الرحل ذوي القوة الشرائية المحدودة، وقد أظهرت عينة من الدخل السنوي الإجمالي لمزارعي

1 - Clarke J.I., " Some observations on Libyans in Tunisia" , Les Cahiers de Tunisie, 21/22, (1959), p.93.

الواحات في عام 1960/1959م أن هذا الدخل يتراوح بين 79 و 301 جنيهًا إسترلينيًا[1]، وفي عام 1966م ، أفاد المزارعون المحليون أن صافي أرباحهم يتراوح بين 100 و 200 جنيه إسترليني، والتي تعني - من الناحية النظرية - أن كل عائلة تتحصل على أقل من جنيه أسترليني لتنفقها في كل سوق على مدار العام، وإذا كان جميع الـ 7000 شخص الذين دخلوا سوق مصراتة يوم 21 يوليو 1966م هم أرباب عائلات يريدون إنفاق الجنيه إسترليني الخاص بهم، فإن إجمالي ماتم إنفاقه نظريًا هو 7000 الأف جنيه أسترليني، ولكن من الناحية العملية هذا الأمر غير دقيق، لأن العديد ممن دخلوا السوق كانوا أفرادًا من عائلة واحدة، والعديد منهم أتوا للبيع فقط، وبالتالي يمكن القول أن ما تم التعامل به في عمليات البيع والشراء في ذلك اليوم لا يتجاوز الـ 3500 جنيه إسترليني، ما يعني أن متوسط العائد المادي لكل وحدة تجارية في ذلك اليوم كان حوالي 5 جنيهات إسترلينية..

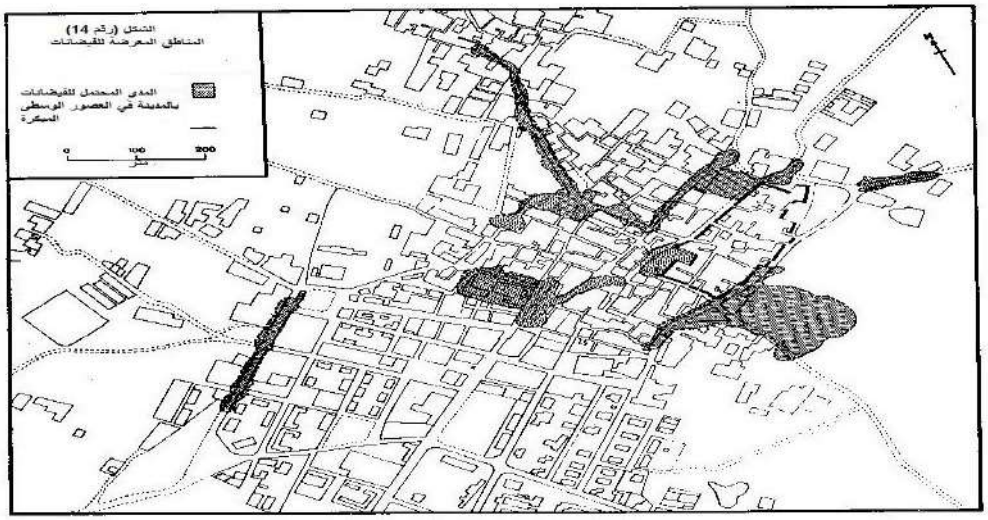

إن ما سبق ذكره هو مجرد تقديرات، ولكن المستوى المنخفض للعوائد الإجمالية التي تشير إليها الأحصائيات تم تأكيده من خلال الأرقام الفعلية التي تم الحصول عليها من متاجر البيع بالتجزئة والحرفيين والتي تم إختيارها في إحصاء عام 1966م (الجدول 7)، والذي تضمن عينات تمثل أكثر أنواع متاجر البيع بالتجزئة المعروفة في مواقع مختلفة من ميدان النصر إلى طريق قصر أحمد خلف سوق الماشية.

من المؤسف أن الجزارين و تجار المجوهرات لم يكونوا على استعداد لمناقشة دخلهم من هذه الأنشطة، لأنهم كانوا من الأثرياء، ولو وضعنا أصحاب الأكشاك ضمن التصنيف، فإن الجزارين يشكلون رابع أكبر فئة من التجار في مصراتة (الجدول 6) ، وهي سمة من سمات حقبة ما بعد النفط في ليبيا.

لقد لوحظ أن اثنين من الجزارين يبيعان حوالي 150كجم من لحم الإبل يوم السوق، وهو ما يعني إجمالي العوائد المالية من ذلك من 6 - 7 جنيهات إسترلينية، أما تجار المجوهرات فهم يضمنون أيضًا أن هناك طلبًا مربحًا - وإن كان غير منتظم- على الأساور الفضية غالية الثمن والحلي الأخرى التي تُقدم تقليديًا إلى العروس في يوم زفافها.

لقد تم حساب صافي الأرباح الشهرية على افتراض أن الأرباح تصل إلى حوالي 35٪ من الإيرادات في متاجر البيع بالتجزئة، و 70٪ للحرفيين، ومتوسط أرباح تلك المحلات المشار إليها في الجدول (رقم 7) هو 40.6 جنيه استرليني ، وهو مبلغ يعتبرمتواضع عندما نتذكر أن الإحصاء الصناعي الذي أجري عام 1956م أظهر أن هناك 715 منشأة صناعية في مصراتة يشغلها عاملين بأجر، بمعدل 2.2 عامل بكل منشأة[2].

الجدول (رقم7) يعطي صورة واقعية عن حجم أرباح الأنشطة التجارية العائلية النموذجية في المدينة،

1 - Mclachlan K.S., op. cit. , p. 713.

2 - Central Statistics Office, Tripoli. Census of Employment and production in urban areas, (1956), p.8.

الجدول 7: إجمالي الإيرادات التقديرية وصافي الأرباح الشهرية لمؤسسات معينة بمصراتة

النشاط الآقتصادي	الدخل الإجمالي بالجنيه الاسترليني		الاجار الشهري بالجنيه الاسترليني	صافي الربح الشهري بالجنيه الاسترليني
	أيام السوق	أيام أخرى		
1. محل نسيج "نول"	15	13	10	104.6
2. مخزن عام	15	5	ملك خاص	84.0
3. أدوات منزلية	15-20	5-7	25	73.7
4. بقال	12	4	ملك خاص	67.2
5. قرطاسية	10	4	6	55.6
6. مخزن عام	7-10	5	5	51.7
7. مخزن عام	10-12	3-4	10	51.6
8. مخزن عام	8-9	4-5	5	49.6
9. محل نسيج "نول"	8-10	3-4	3	49.5
10. محل نسيج "نول"	7-10	3-4	5	45.9
11 بقال	6-7	2	5	30.7
12. مخزن عام	2.1\2	Z	2	14.0
13. مخزن عام	2.1\2	4	1	14.0
14. مخزن عام	2.1\2	مقفل	1	9.7
15. مخزن عام	2-3	مقفل	11	9.2
16. مخزن عام	3-4	1	3	7.8
17. مخزن عام	3-5	2.	312	7.3
18. مخزن عام	1\2- 1.1\2	مقفل	ملك خاص	4.2
أ.قزدارين	5-10	2-3	ملك خاص	84
ب. خياطين	1.1\2	مقفل	3	9.6
ج. نحاسين	1.1\2	مقفل	5	7.6

لقد حقق عدد من التجار ورجال الأعمال في مصراتة نجاحًا كبيرًا في جمع رؤوس الاموال، التي لم يكن سوق مصراتة المحلي قادرًا على استيعابها فهاجر العديد منهم إلى أجزاء أخرى من ليبيا، وبشكل خاص إلى بنغازي ودرنة وطرابلس وطبرق.

كما تجدر الاشارة أيضاً، إلى أن الشركات والمؤسسات التجارية لا تعتبر المصدر الوحيد لدخل العاملين بها، فالزراعة و الرعي يعتبران عادة مصدر دخل إضافي، كما أن المخازن والمحال، التي تفتح أيام السوق فقط (حوالي 20٪ من متاجر البيع بالتجزئة الموضحة في الشكل 15) يمكن ادراجها ضمن مصادر الدخل الاضافية أيضاً، على الرغم من أنه من غير المؤكد ما إذا كان العديد من تجار السجاد وتجارالمجوهرات لديهم اهتمام بالعمل بالزراعة، وبإستثناء متاجر السجاد والمجوهرات، فإن معظم الوحدات التجارية الأخرى بالمدينة والتي تعمل بنظام "نصف دوام" هي مجرد محال عامة فقيرة تقع بعيدًا عن الساحتين الرئيسيتين بالمدينة، مع استثناء تجار الحبوب والمنسوجات الذين لهم تواجد شبة دائم بالسوق.

يعيش غالبية العاملون "بنظام الدوام الجزئي" - الذين يعملون بالمخازن والمتاجرولدى الحرفيين- في قرى خارج مصراتة، ويتولون حراسة المستودعات والمخازن بالمدينة لاستخدامها في أيام السوق،حيث يعطي (الشكل 17 أ)، صورة واضحة عن النجارين والحدادين العاملين بهذه الطريقة، وقد كان ذهاب الحرفيين للعمل يوميًا - في وقت ما- أكثر شيوعًا مما هو عليه اليوم، ولعل أبرز مثال على ذلك، الإسكافيون (من المغاربة) والقزدارين (من أولاد بعيو)، وفي المقابل، كان هناك عدد قليل من العاملين بالمخازن والمستودعات ممن يقيمون في مصراتة، ولكنهم يكتسبون معظم دخلهم من زراعة الحبوب البعلية أو تربية المواشي، التي غالبًا ما تمارس لمسافة تصل إلى 50 كيلومترًا جنوب مصراتة.

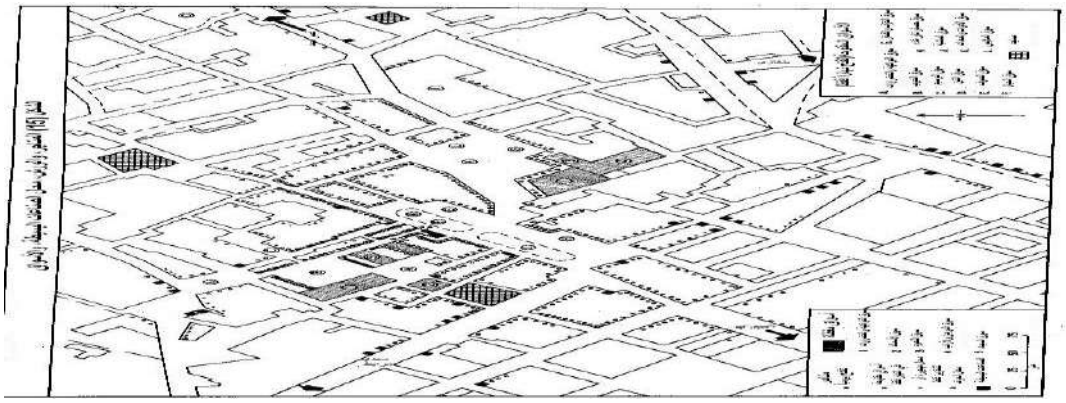

حوالي 80٪ من المحلات والورش في مصراتة مستأجرة من قبل أفراد 60٪ منها تعود ملكيتها للبلدية في حين أن الـ20٪ الباقية مملوكة للقطاع الخاص، ولا يوجد دليل على العمل بنظام "خلو الرجل" كما هو الحال في أجزاء كثيرة من العالم العربي، كما تختلف الإيجارات الشهرية للعقارات والمحال بحسب حجم العقارأو المحل وحالته ومدة عقد الإيجار، وقد بدلنا عدة محاولات لمعرفة ما إذا كانت الإيجارات أكثر إرتفاعًا بوسط المدينة أم لا، إذ أنه وبالرغم من أن معظم التجار كانوا يدركون جيدًا أهمية مركزالمدينة للممارسة النشاط التجاري، إلا أن الإيجارات الموجودة حاليًا لا تبين أن هناك فروق كبيرة بسبب الموقع، وحتى وإن وضع عامل وجود موقع العقار بمركز المدينة في الاعتبار، فإن أهميته تعتبر ليست كبيرة مقارنة بالعوامل الأخرى، وفي نفس الوقت، فإن المباني الأكبر والأكثر حداثة تقع بالقرب من المركز حول ميدان النصر، مايعني أن نظام تفاوت الايجارات سيعمل بشكل تلقائي.

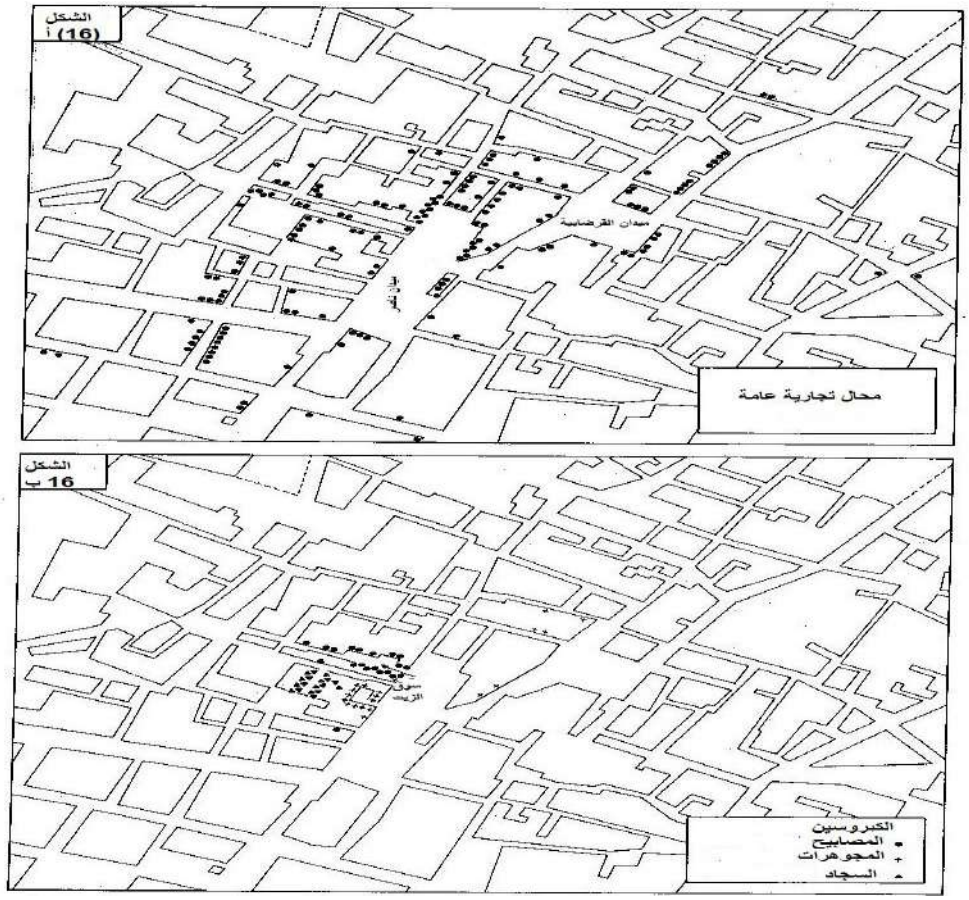

إن ميدان النصرهو بلا شك المركز التجاري الرئيسي لمصراتة، وينحصرمركزه الرئيسي من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي على امتداد الطرق الداخلية بين أبرز مجمعين متكاملين للمركز التجاري للمدينة (الشكل 15)، حيث توجد مجموعة من المتاجر والورش والأسواق في الشمال الغربي من ميدان ناصر تشمل سوق

الحبوب، ومطاحن الدقيق، وأسواق الفاكهة والخضروات المغطاة والمفتوحة، وسوق السمك، وبالإضافة إلى متاجر البيع بالتجزئة المعروفة، كما يشمل هذا المجمع أيضًا محلات السجاد والمجوهرات والكيروسين والزيت والبرسيم، في حين أن ميدان القرضابية هو مركز المجمع الثاني في جنوب شرق ميدان النصر، ويحتوي بشكل خاص على سوق المواشي والعديد من محال الجزارين والحدادين وتجار المعدات، إلى جانب سوق آخر مغطى للفواكه والخضروات وسوق للدواجن.

إن وجود تجمعات للتجار والحرفيين الذين يمارسون أنشطة متشابهة مهم فقط للبعض مثل تجار المجوهرات والحدادين وبائعي السجاد وتجار الكيروسين والزيوت وصنّاع المحاريث (الشكل 16 و 17)، وعلى عكس بعض المدن الكبرى في الشرق الأوسط حيث يمكن أن يُعزى وجود تجمعات للتجار والحرفيين الذين يمارسون أنشطة مماثلة غالبًا إلى عوامل تاريخية مثل نظام الطائفة القديم (النقابة) ، يبدو أن تجمعات التجار في مصراتة مرتبطة، إلى حد كبير، بالفوائد التي يحققها التجار من ذلك، فتجار المجوهرات يتجمعون في سوق صغير يمكن قفله ليلاً لدواعي تتعلق بالحماية والأمن، والحدادين الذين ترتبط مهنتهم بالخيول والبغال والحمير يجدون في سوق المواشي المكان الأنسب لنشاطهم، بينما يحتاج بائعوا السجاد أن يتواجدوا بشكل جماعي لتقديم العروض ووضع أسعار شراء السجاد عند إحضاره للسوق من الأرياف، في حين أن صُناع المحاريث الذين ينتمون إلى قبيلة واحدة وليست بينهم منافسة بالطريقة المعتادة في المهن الأخرى، فإن تجمعهم يكون لأسباب تتعلق بالراحة والرفقة إلى حد كبير، ولأسباب مماثلة، بدأ القزدارون (الذين يقومون بطلاء الأواني النحاسية بالقصدير) والنحاسون (المتخصصون في صنع واصلاح المعدات النحاسية) في الأصل العمل معًا في سوق الزيت، وهي الأنشطة التي أفسحت الطريق فيما بعد لبيع الكيروسين والزيت.

المحال التجارية بمصراتة هي نموذج مشابه للمحال السائدة بالعالم العربي، حيث تتكون من غرفة مستطيلة بعض الشئ ودون نوافذ، تفتح على الشارع، ومجهزة بطاولة بسيطة وبعض الرفوف ومصراع حديد أو أبواب مزدوجة للأمن ليلاً، وقليل من الناس لديهم مياه للشرب وليس لديهم إضاءة كهربائية، كما تختلف أحجام المباني بشكل كبير، ولكن يمكن التمييز بين نوعين رئيسيين من المباني، فالمتاجر الأقدم ، التي ربما تعود إلى منتصف القرن التاسع عشر، توجد بالقرب من ميدان القرضابية.

معظم المباني كانت مساحتها لا تزيد عن خمسة عشر مترًا مربعًا، وأغلب أبوابها كانت خشبية كما أن أرضياتها، في الغالب، كانت غير مرصّفة، وكل المحال الواقعة على امتداد شوارع ميدان القرضابية ، كانت تُستخدم في الأصل كورش ومشاغل، و لم يبق منها اليوم سوى عدد قليل من صنّاع المحاريث من البلابلة (اللوحة 2 ب)، في حين أن المحال والمتاجر حول ميدان النصر كانت تبدو أكبر من حيث المساحة، حيث تبلغ مساحتها، في الغالب، حوالي 28 مترًا مربعًا، باستثناء الورش الصغيرة في سوق الزيت ومحلات الصاغة التي - إلى جانب صغر مساحتها - يسود فيها استخدام الأرضيات الخرسانية والمصاريع للأبواب.

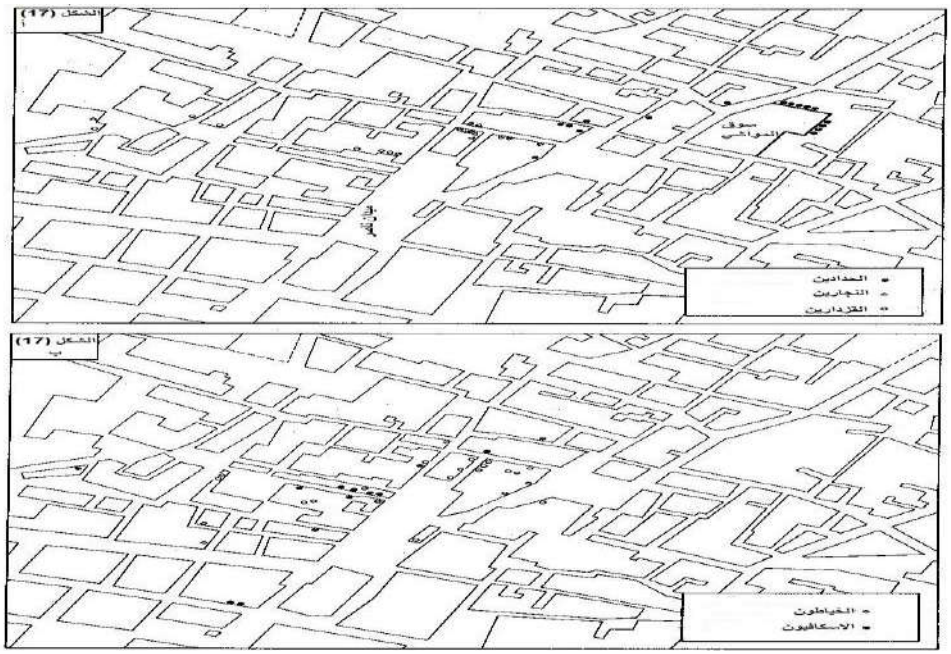

وإلى جانب التجارة التي تتم داخل المحال التجارية، وبيع المنتجات الزراعية في الأسواق المفتوحة، يتم أيضًا القيام ببعض الأنشطة الاقتصادية في الأماكن المفتوحة أيام السوق، حيث يتضمن الجدول رقم 8 قائمة بتلك المعاملات والأنشطة التجارية التي أجريت بسوق مصراتة الذي عقد أحد أيام الخميس في شهر يوليو 1966م، كما يظهر الشكل رقم 15 الأماكن والمواقع التي أجريت بها هذه المعاملات، مع ملاحظة أن علامة النجمة (*)التي وضعت على بعض الأماكن تشير إلى أن القائمين بتلك المعاملات هم من سكان المدينة في حين أن المعاملات الأخرى (التي لم توضع عليها علامة نجمة*) هي أنشطة تجارية (متخصصة) للبدو من أبناء القبائل.

الجدول 8: الأنشطة التجارية بالأسواق المفتوحة في الهواء الطلق في السوق يوم الخميس

النشاط التجاري	عدد البائعين	
الصوف خام	**78**	
الحبوب	***38**	
حصائر تاورغاء	**36**	
البرسيم	**30**	
الصوف المغزول	**15**	**أماكن ومواقع الأنشطة انظر الشكل 15**
الحبال وحمالات الحبال	**12**	
الملابس والأحذية الأوروبية	***12**	
المعدات والأدوات	***8**	
سلع وبضائع مختلفة	***8**	
قبعات الرجال	**6**	
القرب	**5**	
المجموع	**248**	

يقوم تجار الحبوب بشراء كميات كبيرة من تلك الحبوب في وقت الحصاد ثم يبيعونها بكميات صغيرة (بالتجزئة) في أيام السوق، أما بيع المواشي فهو من أهم الأنشطة التجارية بمصراتة وأكثرها إثارة، ويتركز العمل الرئيسي بسوق الماشية في بيع الإبل الصغيرة للجزارين، حيث يتم بيع مابين 70-100 جمل في الأسبوع، وأغلب هذه الإبل يتم إحضارها من الجزء الشرقي من طرابلس الغرب، وكذلك من فزان بواسطة سيارات النقل الكبيرة (الشاحنات)، أما في الماضي، فقد كانت الإبل تصل إلى مصراتة مشيًا على الأقدام من النيجر وتشاد.

إن معظم الجمال التي يتم شراؤها من السوق يتم ذبحها وبيعها في سوق اللحوم ومحلات الجزارين في نفس اليوم، وينقل الجزء الباقي منها إلى زليتن والخمس وطرابلس لذبحها بأسواق اللحوم هناك، في حين أن عدد قليل منها يشتريه المزارعون المحليين لتربيتها وإستخدامها في أغراض الزراعة والنقل، أما أسعار المواشي والحيوانات فهي تختلف وفقًا لحالة الحيوان ووزنه، إذ تتراوح - بشكل عام - مابين 15 جنيهاً استرلينياً للعجل الذي عمره ثلاثة أو أربعة أشهر إلى مابين 100-110جنيهاً استرلينياً للجمل السمين كامل النمو، يضاف إلى ذلك أعداد قليلة من الماعز والأغنام والحمير وأحيانًا الخيول، يتم جلبها لمبادلتها في كل سوق، إلا أنه لوحظ أن أعداد الحيوانات التي تدخل لغرض بيعها في كل يوم من أيام السوق تكون أكثر في النهاية من التي تباع فعليًا، وتتراوح أسعار الحمير ما بين 15 قرشًا و 6 جنيهات إسترلينية ، بينما تتراوح أسعار الخيول مابين 12 - 35 جنيهاً إسترلينياً.

إن إمكانية التنمية الزراعية في أو بالقرب من المستوطنات الإيطالية السابقة بمصراتة يعتبر أمرًا ممكنًا سواءً على مستوى طموحات رابطة المستوطنات الزراعية الوطنية (NASA)، أو عن طريق المشاريع الأكثر تواضعًا مثل تلك التي أوصت بها جامعة درم Durham University لمنطقة تاورغاء عام 1961م[1].

إن المزارع الجديدة التي تنتج الكروم والفواكه والحمضيات والخضروات والشعير يمكن أن تعتمد، ولو - بشكل نسبي - على التسويق المستقل للمنتجات وهو ما قد يفي بالغرض اليوم، ولكن - من المؤكد - أن تكون هناك حاجة ماسة مستقبلًا لإنشاء مؤسسات تعاونية تسويقية مركزية جديدة، وربما يتطلب الأمر إنشاء مصنع صغير للأغذية في مصراتة، لذلك، فإنه إذا مأريد لإقتصاد مدينة مصراتة أن ينتعش ويتطور فيجب تشجيع جميع أنواع الصناعات البسيطة، وسيكون من غير المنطقي، أن تعتمد مستويات المعيشة في المستقبل فقط على السوق القديمة لمصراتة، والذي انتعش بشكل غير مباشر من عوائد الطفرة النفطية في ليبيا ليصبح مركز إعادة تصدير "ترانزيت" كما استفاد -إلى حد ما - من التحويلات المالية من الأقارب خارج مصراتة وغيرها.

1 - Gilchrist Shirlaw D.W., Willimott S.G., et al. Soil survey of Tauorga, Tripolitania, Libya. Department of Geography, University of Durham, (1961), 1-64.

لقد لعبت عوامل التجربة الطويلة ومحدودية فرص العمل الأخرى - التي حتمتها بئية مدينة مصراتة - دورًا مهمًا في تَميّز أهالي المدينة بمهارة تجارية غير عادية، يعترف بها الجميع في مختلف أنحاء ليبيا، لذلك، نأمل أن يجد خبراء المساعدة الفنية من مختلف البلدان -الذين يستعدون الآن لإدخال مصراتة عصر التنمية والتطوير المنظم، أن يجدوا الوسائل المناسبة لاستغلال تلك المهارات والإمكانيات، كما عليهم أيضًا أن يدركوا الأهمية الاجتماعية الكبيرة للسوق في خلق مجتمع متماسك في مصراتة والمحافظة عليه.

References

المراجع

1. Africanus Leo, The history and description of Africa, Translation of 1600 editedby Robert Brown. Hakluyt Society (1846).
2. Agostini de E, Le popolazione della Tripolitania, Tripoli, (1917).
3. Beechey F.W. and H.W., Proceedings of the Expedition to explore the Northern Coast of Africa1821-22, (1828).
4. Census and Statistical Dept., Tripoli, General Population Census, 1964.
5. Central Statistics Office, Tripoli. Census of Employment and production in urban areas, (1956).
6. Clarke J.I., " Some observations on Libyans in Tunisia" , Les Cahiers de Tunisie, 21/22, (1959).
7. Gilchrist Shirlaw D.W.,Willimott S.G., et al. Soil survey of Tauorga, Tripolitania, Libya. Department of Geography, University of Durham, (1961).
8. Kiang,H., Sewage system planning, Misurata, Misurata (1965), 10 (unpublished).
9. Landschut S., Jewish communities in the Muslim countries of the Middle East, (1950).
10. Mclachlan K.S., A geographical study of the coastal zone between Horns and Misurata, Tripolitania, Ph.D. Thesis, University of Durham (1961).
11. Ministry of Agriculture, Tripoli. Census of Agriculture, (1962).
12. Ministry of Economy and Trade, Tripoli. Report of the industrial census, (1964).
13. Newton-Keith A., Children of Allah, (1966).
14. Royal Geographical Society, Records of the African Association 1788-1831, (1964.
15. Sharif, Abd Al-Aziz, Geography of Libya, Cairo, (1963).
16. Sifar, Ibrahim, Misurata, a regional study of the town and district. B.A. dissertation, University of Libya, (1963).
17. Slouschz N., Travels in North Africa, Philadelphia, (1927).

Maps and Air Photographs

الصور والخرائط الجوية

- Air photographs, scale 1:2, 000 (approx.) Prepared for McGaughy, Marshall, McMillan and Lucas (1966).
- U. S. Army Map Service: 1:50, 000 Series (1962) Sheets 2289 I and II, 2389 III and IV.
- G. S. G. S. 1.5, 000 Town Plan of Misurata (1943).
- Governo della Tripolitania: Misurata Citta 1:8, 300 (1918).
- Line drawing by Messrs. Howard Humphreys and Sons: 1:2, 000 (1965), 2 sheets. Italian 1:2, 000 Plano Regalatore della Misurata Citta (1939).